

الفصل السادس

كيف بسط المسلمون نفوذهم في فرنسا

نفكير موسى بن نصير في عبور البرانس — السمج وفتح سبتمانيا (جوثيا)
عام ٧٢١ م — أربونه قاعدة العمليات الحربية الاسلامية في أرض الفرنجة —
عنبسة وحوض الرون واقتراجه من باريس . عذرة انفهري ومساعدة بعض الفرنجة
له — مبالغة المراجع اللاتينية وتحيزها — الغافقي ووادي الجارون — بلاط
الشهداء (٧٣٢ م) — البروفنسيون يساعدون المسلمين — تغير الاحوال في
الشرق بقيام الخلافة العباسية وفي الغرب بقيام الكارولنجيين — بين أبي جعفر
المنصور وبين القصير — شارلمان وأحلامه الامبراطورية — اجتماع بادربورن
٧٧٧ م — كارثة رونسفال ٧٧٨ م — أغنية رولاند — صقر قریش
والكارولنجيون — قصة الحماية الرمزية على القدس — قلعة فراكسينيتوم وامتداد
الغزو الاسلامي الى سافوى — التحكم في معابر الالب — غزوات بجاهد العامري .

obeykandi.com

جاءت محاولة العرب فتح فرنسا ، من أهم أحداث عهد الإمارة الإسلامية ، في أسبانيا (٩٥ - ١٢٨ هـ / ٧١٤ - ٧٥٥ م) ، وقد فكر موسى بن نصير في عبور البرانس [البرت ^(١)] والاندفاع في غرب أوروبا وبسط السيادة الإسلامية على فرنسا . ويطاق العرب على فرنسا اسم « الأرض الكبيرة » ، كذلك كان من أهداف ابن نصير الاتجاه شرقاً بعد إتمام فتح فرنسا ، والاستيلاء على روما أو القسطنطينية ، وأمنية المسلمين في فتح القسطنطينية ، معقل الروم ، أمنية قديمة ملحة ، فقد تكررت المحاولات لفتحها من جهة المشرق ، غير أن مناعة أسوارها ، وموقعها الحصين ، حالاً دون الاستيلاء عليها ^(٢) .

خشى الخليفة الوليد بن عبد الملك من أن يغتر موسى بنصره ، فيغتر بالمسلمين في أرض واسعة ، وطريق وعر ، لم يقطعه فاتح من قبل . فلم يحدث أن اخترق أوروبا جيش موحد من أقصى الغرب في شبه جزيرة أيبيريا إلى

(١) عبرت المراجع العربية عن جبال البرانس باسم جبال البرت (راجع تقويم البلدان

ص ١٦٩)

(٢) نفح الطيب ص ١٠٨ ، ابن الأثير ص ٥٠ ، العبادي ص ٥٣ ، العدوي :

الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ص ٦٥ - ٧٠ ، أسد رستم : الروم ص ١٠ - ٢٩٢ -

٢٩٦ ، أومان : الإمبراطورية البيزنطية - ترجمة بدر - ص ١٤٥ - ١٤٨ ، C. Med H.

Vol. IV P. 3 Vassilies, of Cit. P. 285 .

شاطيء البحر الأسود ، دفعة واحدة ، ومن ثم استدعى موسى ومولاه طارقاً إلى المشرق (١) .

واستخلف موسى على الأندلس ابنه عبدالعزیز (٩٥ هـ / ٧١٣ م) وترك معه حبيب بن أبي عبيدة بن أخت عقبة بن نافع « وزيراً له ، ومعيناً » ، اتخذ عبدالعزیز أشيلية قاعدة الإمارة ، وفتح الجزء الجنوبي الشرقي من أسبانيا . وتذكر المراجع أنه تزوج من أرملة لوذريق ، وهي أيلة Egilone أو أيلونا التي كنيت بأم عاصم ، حظيت عنده هذه الزوجة ، حتى أغرته بأن يأخذ أصحابه بالسجود له ، فرفض لأن ذلك يخالف الإسلام فما زالت به حتى فتح باباً قصيراً لمجلسه ، فكان الداخل عليه من هذا الباب يضطر إلى طأطأة رأسه ، حتى يصير كالراكع ، فرضيت بذلك . ثم أغرته بعمل تاج من ذهب ، وأخيراً أثار عليه المسلمون وقتلوه عام ٩٧ هـ / ٧١٦ م ، إذ دخل عليه زياد بن عذرة البلوي في مسجد أشيلية وعلاه بالسيف قائلاً : « قد حقت عليك يا ابن الفاعلة » ، ويقال إن الخليفة سليمان بن عبد الملك بعث إلى الجند في قتله ، فقتلوه (٢) .

(١) أخبار مجموعة ص ١٩ ، ٢٩ - ٣٠ ، نفح الطيب > ١ ص ٢٦٤ ، ابن عذاري > ٢ ص ٢٩ - ٣٠ ، ابن القوطية ص ٣٦ ، ٢١٣ - ٢١٧ ، العبادي ص ٥٣ ، De Maréville, PP. 110 - 111 ; Scott. I, P P. 254 - 56.

(٢) ابن عذاري > ٢ ص ٣٠ - ٣٢ ، نفح الطيب > ١ ص ٢٦٣ ، ابن الأثير > ٥ ص ٨ - ٩ ، أخبار مجموعة ص ٢٠ - ٢١ ؛ ابن عبد الحكيم ص ٢٨٥ - ٢٨٦ ، ابن القوطية ص ٣٧ - ٣٨ ، ١٧٩ - ١٨٢ ، فجر الأندلس ص ١٢٩ - ١٣٣ ، Lévi - Prov T. I, PP. 33 .. 4 ;

ظلت فكرة عبور البرانس إلى الأرض الكبيرة ، تراود قادة المسلمين في أسبانيا ، حتى كانت ولاية السمع بن مالك الخولاني عام ١٠٠ هـ / ١٧٩ م وكان مثل الخليفة عمر بن عبد العزيز ، والسمع من أفاضل عرب أفريقية ، ومن خيرة الولاة الذين تولوا أمر الأندلس (١) . وبولايته ، عاد الحماس إلى الجند الإسلامي ، وكان قد فتر على أثر استدعاء موسى بن نصير وطارق بن زياد ، وما لحق بهما في دار الخلافة (٢) .

والسمع هو الذي نقل العاصمة الإسلامية في أسبانيا إلى قرطبة ، بعد أن كانت في طليطلة — عاصمة القوط القديمة — ثم أشبيلية — زمن عبد العزيز بن موسى — ، واستمرت قرطبة عاصمة الأندلس حتى نهاية الدولة الأموية في الأندلس ، وتقع هذه المدينة على الضفة الشمالية لنهر الوادي الكبير Guadalquivir (٣) .

حقق السمع الفكرة التي دارت برأس موسى بن نصير من قبل ، وقام على رأس جيشه في عام ٧٢١ م وفتح إقليم سبتمانيا Septemania ، وهي منطقة ساحلية تمتد من البرانس غرباً إلى مصب نهر الرون شرقاً ، وتتصل بما يعرف اليوم باسم الرفيرا الإيطالية (٤) . ثم هي تطل على البحر الأبيض

(١) ابن الأثير ج ٢ ، ٢٢٥ ، ٣٠ - ٣١ ، Levi-Provençal, T. I, pp.

(٢) ابن القوطية ص ٣٦ ، ١٥٩ - ١٦١

(٣) انظر الروض المعطار ص ١٥٣ - ١٥٨

(٤) جغرافيا الأندلس ص ٢٤٩

جنوبي فرنسا ، وعرفت بهذا الاسم لاشتغالها على سبع مدن أو سبعة أقسام إدارية (١) . كذلك عرفت منطقة سبتانيا باسم « جوثيا » Gothia نسبة إلى القوط . إذ كانت من بقايا مملكة الغربيين . وكان يتحكم فيها يومئذ جماعة من نبلاء القوط . وعاصمتها أربونة Narbonne (٢) .

استولى السصح على هذه العاصمة بعد حصار دام شهراً . وذلك عام ٧٢١ هـ . وغنم المسلمون الكثير من الأموال والتحف ، ويرجع أغلب هذه الكنوز والتحف إلى رجال الدين الذين هربوا من أسبانيا ، عقب الفتح الإسلامي لها . فقد حملوها معهم وأودعوها المؤسسات الدينية في هذه المدينة وغيرها (٣) . وساعد على سقوط أربونة في يد المسلمين ؛ أنها مفتوحة من جهة البحر ؛ فتيسر وصول الإمدادات إلى القوة المحاصرة من أسبانيا .

اتخذ السصح أربونة قاعدة لعملياته الحربية في فرنسا ، ودعم حصونها وشحنها بالحاميات . ولا يزال يوجد بهذه المدينة شارع ينسب إلى السصح يعرف باسم شارع السصح Rue de Zama (٤) . وكذلك أقام السصح الحاميات في المدن المجاورة (٥) .

(١) راجع ما سبق .

(٢) انظر الروض المطار من ١١-١٢ ؛ تقويم البلدان ص ١٤٧

(٣) Scott, I, p. 276

(٤) أرسلان . غزوات العرب ص ٦٣-٦٤

(٥) العرب والإسلام ص ١١٠-١١٣ P. 28 ; Lane-Poole, OP.Cit. P. 158 ; Pirenne.

تتبع السمح مجرى الجارون واتجه غرباً . وفتح جميع ما صادفه من المدن والحصون مثل بيزي Beziere وماجلون Maguelonne . وهذه المدينة الأخيرة عرفت باسم « ثغر المسلمين » Part Sarrasin (١) . ثم فتح قرقشونة Carcassonne وسار حتى وصل إلى طولوشة Toulouse عاصمة أكويتانيا . غير أن طولوشة قاومت الحصار الذي ضربه السمح حولها . كما نصب حولها المنجنوقات . ظلت هذه المدينة تقاوم حتى وصل الدوق أود Eudes الفرنجي . حاكم أكويتانيا (٢) . على رأس جيش ضخم . وأخذ السمح يشد من أزر رجاله ، ويقرأ قوله تعالى : « إن ينصركم الله فلا غالب لكم » .

وقعت معركة عنيفة ، أصيب فيها السمح بطعنة قضت عليه أواخر عام ١٠٢ هـ / ٧٢١ م (٣) ؛ ففقد ذلك عضد الجند ، وحينئذ ارتدوا عن

(١) Deanesly, p. 256

(٢) الدوق أود حاكم أكويتانيا من سلالة الفرنجة الميروفنجيين ملوك فرنسا ، وكان شبه مستقل بدوقيته أما ملوك الفرنجة المعاصرون لهذه الفترة التي تم فيها فتح أسبانيا وفتح جنوبي فرنسا منهم :

شلبيرت الثالث Childebert III (٦٩٤-٧١١ م) ويحكم في نسترية ، داجوبرت الثالث Dagobert III (٧١١-٧١٥ م) ويحكم في نسترية ، شلريك الثاني Chilperic II (٧١٥-٧١٨ م) في نسترية ثم في كل فرنسا (٧١٩-٧٢١) ، ثيري الرابع Thierry IV (٧٢٠-٧٣٧ م) على كل فرنسا ، شلريك الثالث Childeric III (٧٤٣-٧٥١ م) وهو آخر ملوك الميروفنجيين .

(انظر) H. G. T. I, P. 468 ; Deanesly, P. 283 Pirenne, P. 156

(٣) فتح الطيب (الطبعة الجديدة) ج ١ ص ٢١٩ ، ابن عذاري ج ٢ ص ٣٤-٣٥

طولوشة . وكان رجال الدين المسيحيون قد أثاروا حماس مواطنيهم ضد المسلمين ، ويقال إنهم حجّبوا مواطنيهم بالتعاون والاحجية التي باركها البابا ، وليس صحيحاً ما ذكره بعض المسيحيين من أن أحداً لم يقتل ممن يحمل تلك الاحجية (١) .

جاءت وقعة طولوشة ، أول نكسة للعرب في أوربا ، فعادت فلول الجيش الإسلامي بقيادة عبد الرحمن الغافقي الأزدي إلى قاعدة أربونة ، وكان استيلاء المسلمين على طولوشة يمكنهم من التحكم في وادي نهر الجارون وفي الحدود الشمالية لمقاطعة غشقونيا Gascony (٢) .

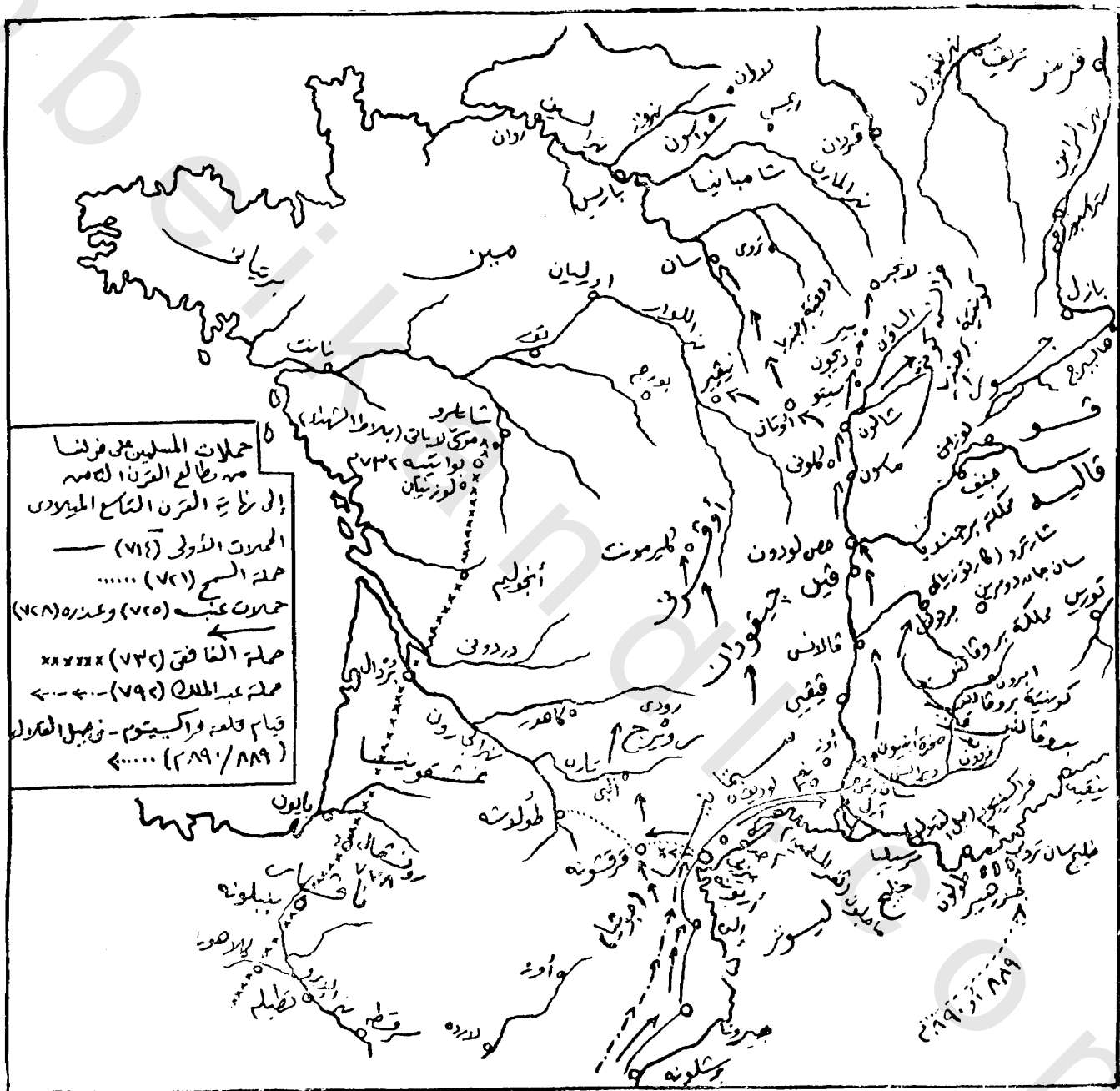
خلف السمع على إمارة أسبانيا ، عنيسة بن سحيم السكابي من قبل يزيد بن أبي مسلم عامل أفريقية . عام ١٠٣ هـ / ٧٢١ م ، واصل أمر الغزو في فرنسا الجنوبية ، غير أنه لم يسر في الاتجاه الذي سلكه السمع ، بل سار على الساحل حتى وصل إلى نهر ردونة Rhodanus (الرون) ، وأعاد الاستيلاء على بعض البلاد مثل قرقشونة ، وهذه صالحه أهلها على نصف أعمالها ، وعلى جميع من فيها من أسرى المسلمين ، وتعهدوا بدفع الجزية والالتزام بأحكام أهل الذمة ، من محاربة من حاربه المسلمون ومسالمة من سالموه . ثم أخذ منها عنيسة بعض الرهائن ، وأرسلها إلى برشلونة (٣) .

Scott, P. 277 (١)

Deanesly P. 286 (٢)

(٣) نفح الطيب (الطبعة الجديدة) ص ١٠٩ - ٢٢٠ ؛ ابن الأثير ص ٥٤ ؛

Levi .. Pravenal, I pp. 58 .. 59



واجتاح العرب بعد ذلك مقاطعات نيم Nimes و Puy وكليرمونت Clermont (١)، ولما اقتربوا من دير موناسيتي Monastier في منطقة فالى Valey ، جمع رئيس الرهبان ، وهو القديس شافر St. Chaffre ، رهبانه وأمرهم بالفرار بنفائسهم إلى الغابات المجاورة ، وظل هو بالدير على أمل هداية الغزاة . أولعله يكون في تضحيته بنفسه خلاص لرعيته ، وأن يسكن الغضب الإلهي الذي حل بسبب أخطاء البشرية . فلما وصل العرب إلى الدير ، لم يجدوا به سوى هذا القديس ، فضربوه وتركوه . فمات بعد قليل ، ويحتفل بعيد هذا القديس في ١٩ أكتوبر من كل سنة (٢).

استمر عنيسة في زحفه الظافر ، وأغار على منطقة دوفيني Dauphine وعاصمتها جرنوبل ، كذلك أغار على برجنديا ، وعلق بعض المعاصرين على هذه الغزوة الكاسحة ، بأن الله قذف في قلوب الكفار الرعب . فلم يتصد أحد منهم للمسلمين إلا لطلب الأمان (٣).

اجتاح العرب بعد ذلك مدينة أوزه Uzes وفيين Vienne ، ونواحي فالنسي ووصلوا إلى مدينة ليون Lyon ، ويسمىها العرب حصن لودون (٤)

(١) ارتبطت مدينة كليرمونت بالحروب الصليبية منذ أواخر القرن الحادى عشر حين عقد البابا أريان الثانى فيها المجمع المشهور عام ١٠٩٥ م وهو المجمع الذى تقرر فيه الدعوة إلى الحروب الصليبية .

(٢) أرسلان : غزوات العرب ص ٧٦-٧٧ ، Demarles, PP. 127., 130

(٣) أرسلان ص ٧٧ (عن رينو)

(٤) Lévi ·Provençal, T. I, P. 54

وكذلك زحفوا على مدينة ماسون Macon وشالون Chalon ، والأخيرة على نهر السامون (١). وأخضعوا بعد ذلك مدينة بون Bon ، وتقع على بعد ٣٨ كم إلى الجنوب الشرقي من ويجون ، ووصلوا في تقدمهم إلى مدينة أوتان Outun في أعالي الرون ، وغنموا الكثير من كنوز الكنائس والأديرة ، وبعثوا بسراياهم إلى جهات اللور ونيفير Nevers ثم كونتية برجنديا التي عرفت فيما بعد باسم فرانك كوتى France Conte (٢)، ولاتزال آثار عربية وأسماء عربية توجد إلى اليوم في فرانك كوتى (٣).

لم يجد المسلمون مقاومة إلا في مدينة سانس Sens ، الواقعة على بعد ثلاثين كيلو متراً جنوبى باريس ، ومدينة سانس عاصمة إقليم يوند Yonnd ، وفيها تصدى إيبنون Ebbon أسقف المدينة ، للزحف الإسلامى ، واستعد له من قبل ، فحصن المدينة وحشد مواطنيه ، فهبوا معه لحماية مدينتهم ، ونجحوا في وقف الزحف العربى (٤).

ويبدو أن عنبسة بن سحيم الكلبي ، أدرك بعد هذا التقدم الظافر، الذى جعله يقترب من باريس ، أنه توغل في قلب فرنسا أكثر مما ينبغي ، فخشى ألا يستطيع تأمين خطوط عودته ، ثم إنه سمع في ذلك الوقت بانبعاث العصبية في أسبانيا، ووقوع الخلاف بين العرب والبربر. ولو لم تجتمع هذه

(١) فجر الأندلس ص ٢٤٧

(٢) Brooke, P. 95

(٣) أرسلان ٧٩

(٤) فجر الأندلس ص ٢٤٧ ؛ أرسلان ص ٧٩ - ٨٠

الأحوال في ذلك الوقت ، لما انصرف عن فتوحه الموفقة في غالة ،
بعد أن أدرك هذا النصر العظيم (١) .

لم يكن عنبة حذراً في طريق عودته ، فداهمته جموع كبيرة من الفرنجة
والتحجم معها في وقعة أصيب فيها بجراح بالغة ، توفي على أثرها في شعبان
١٠٧هـ / ديسمبر ٧٢٥م (٢) ، فعادت فلول الجيش الإسلامي بقيادة عذرة
بن عبد الله الفهرى إلى أربونة (٣) .

وقد خلف عذرة الفهرى عنبة في ولاية الأندلس ، قدمه أهل الأندلس
عليهم حتى جاء الوالى المعين من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك وظل عذرة
في ولاية الأندلس سنتين وثلاثة أشهر (شوال ١٠٧هـ - ربيع أول ١١٠هـ /
فبراير - مارس ٧٢٦ - يونيو / يولييه ٧٢٨م) (٤) .

واصل عذرة جهاد سلفه في بلاد غاله . وبعد أن جاءت له الأمداد من
الأندلس . اقتحم سبتمانية مرة أخرى . ودخل حوض الرون . وغزا

(١) فجر الأندلس ص ٢٤٧ - ٢٤٨

(٢) فجر الأثير ص ٥٤ ؛ ابن عذارى ص ٣٦ ؛ فجر الأندلس ص ٢٥٤

(٣) تشير المراجع الأجنبية إلى عذرة هذا باسم Hodera أو Hodeyra

(٤) راجع 30 .. 127 pp. De Marlés, ؛ فتح الطيب ص ١٠٩ ، ابن عذارى ص ٢
ص ٣٧ ؛ العبادى ص ٥٦ ؛ فجر الأندلس ص ٢٥٤ ؛ المسلمون في حوض البحر الأبيض
ص ٦٧ ؛ العرب والإسلام ص ١١٧ - ١٢٠

(٤) كان الوالى المعين على الأندلس من قبل الخليفة هشام : يحيى بن سلمة السكلى (انظر
ابن عذارى ص ٢ ص ٣٧ ؛ أعمال الأعلام ص ٦ ؛ العرب والإسلام ص ١٢١)

الألبين Les Allbegeois واقتحم إقليم رويرج Le Rouergue وجيفودان Gevaudan وليفليه Levelay واحتل حصن روكبريف Roqueprive في مقاطعة رودس Rhodes . وفي هذه المنطقة انضم إليه عدد كبير من أهلها وزحفوا معه . فاتسع مجال الغزو والهجوم (١) .

وقد بالغ رينو Rein aud في وصف تخريب العرب واعتداءاتهم على الكنائس والأديرة . والثابت المعروف أن هدف المسلمين لم يكن حرق الكنائس والأديرة ، لأنه بمقارنة المسلمين بالشعوب التي كانت تسود غاله في تلك الحقبة ، من فرنجة وقوط غربيين وشرقيين وبرجنديين ومن إليهم يتبين أن المسلمين كانوا أعظمهم حضارة وأبعدهم عن النهب والتخريب . هذا وقد أشارت النصوص التي وردت بالمراجع اللاتينية إلى أن الذين خربوا هذه الأماكن وغيرها هم الوند Uandes والوندال Uandali والجنرال Gandali . فجاء مؤرخو الكنيسة وقالوا إن المراد بهذه الألفاظ هم المسلمون وتابعهم رينو وغيره من المؤرخين المحدثين . مما يدل على التعسف وعدم الدقة . ولا سيما أن هذه التسميات بعينها . أطلقت بعد ذلك على المجرمين الذين خربوا هذه النواحي زمن شارل مارتل وبيبين وشارلمان . ولو أن رينو عاد بعد ذلك وتشكك في أن المسلمين هم الذين قاموا بهذا التخريب (٢)

(١) أرسلان من ٧٣ — ٧٧ (عن رينو) ، فجر الأندلس ص ٢٥٧ — ٢٥٨ ؛
العرب والإسلام ص ١٢٠ — ١٢١

(٢) من هذه المراجع : Lecoite, P., Annales Ecclesiastica Francoum, IV, PP. 728 sqq., 796, sqq.; Mabillon, Acta Sanctorum Benedictini, II, PP. (عن فجر الأندلس ص ٢٥٨ — ٥٩) 527, Sqq.

بل إن الفرنجة أنفسهم . بقيادة عاهلهم الأكبر وهو قارله (شارل مارتل) نهبوا الكنائس واستولوا على كنوزها وخربوها فيما بعد وقعة تور (١) .

* * *

وقف أمر الغزو عند هذا الحد . حتى ولي الأندلس عبد الرحمن ابن عبد الله الغافقي (١١٢ - ١١٤ هـ / ٧٣٠ - ٧٣٢ م) . وكانت ولايته للأندلس من قبل والي أفريقية عبيد الله بن الحجاب . والغافقي هو الذي كان قد ولي أمر الجيش الإسلامي بعد ما حاقت الهزيمة بالسمح بن مالك الخولاني في وقعة طولوشة عام ١٠٣ هـ / ٧٢١ م ونجح في الانسحاب الأمين (٢) .

والغافقي معروف بالشجاعة وقوة الشكيمة وحسن القيادة . وربما كان أقدر قائد عسكري عرفته الأندلس في عصر الولاة ، غير أن الظروف لم تكافأ مع عبقريته الحربية ، وكانت وقعة طولوشة قد تركت أثراً شديداً في نفسه ، فعلمته الحذر والحيلة ، كما أشعلت الحماس في قلبه للنار لما أصاب المسلمين من هزيمة (٣) .

(١) Scott, 1, P. 311 ، انظر مايلي ، وانظر العرب والإسلام من ١٣٣ - ١٣٤

(٢) تولى أمر الأندلس بعد عنزة في الفترة - ما بين وفاته ١١٠ هـ / ٧٢٨ م إلى ولاية الغافقي عام ١١٢ هـ / ٧٣٠ م خمسة ولاة هم : يحيى بن سلمة الكلابي ثم حذيفة بن الأحوص الغنصلي ثم عثمان بن أبي نعمة الخنمسي ، ثم الهيثم بن عبيد الكلابي ثم محمد بن عبد الله الأشجعي الذي ولي شهرين خلال عام ١١١ هـ (ابن عذاري ٢ ص ٣٧ - ٣٨ ، ابن القوطية من ٣٩ ، ١٣٩ ، أعمال الأعلام من ٦ ، نفح الطيب ١ ص ١٠٩)

(٣) العبادي من ٥٦ ، فجر الأندلس من ٢٦١ - ٢٦٣ ، ٦ ، Scott, I, ; PP. 892 ..

استعد استعداداً كبيراً لغزو فرنسا . وأعلن الدعوة للجهاد الإسلامي في سبيل الله . وأعلن هذه الدعوة في أفريقية ، كما أعلنها في الأندلس ، فتدفق عليه المتطوعون من كل ناحية ، وتجمع لديه عدد ضخم من القوات (١) وبدأ تحركه بعبور جبال ألبرت في أوائل سنة ١١١٤ هـ / ٧٣٢ م .

وفي الأرض الكبيرة ، استعد أود Eudes دوق أقطانية (أ كويتانيا) للقاء العرب . وكان هذا الدوق خلال السنوات العشر الأخيرة السابقة لوقعة بلاط الشهداء (٧٢١ - ٧٣٢ م) قد دأب على حماية دوقيته بشتى الوسائل . منها إثارة الخلاف بين العرب والبربر في أسبانيا ، ومنها عقد زيجة سياسية مع الزعيم البربري عثمان بن أبي نسعة Neza - ويسميه الفرنج تسمية محرقة هي مونوزة Munuza (٢) الذي ولى الأندلس فترة قصيرة تقدر بنحو خمسة شهور أو ستة خلال عام ١١٠ هـ ، وهو مشهور بالبسالة والنجدة في الحروب ، غير أن أصحابه حقدوا عليه ، فسعوا إلى الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ / ٧٢٤ - ٧٤٣ م) فعزلوه ، وولى بعد عزله حكم منطقة البرانس ، وكان يعرف بأمير الثغر ، والمقصود بالثغر مدينة الباب ، الواقعة في أحد ممرات جبال البرانس ، ويظن أنها مدينة بي سردا Puy Cerda أو مدينة شرطانية Cerdana أو Cerritania غربي

(١) قيل إن القوات التي تجمعت للفائق بلغت ما بين ٧٠ إلى مائة ألف مقاتل (فجر الأندلس ص ٢٦٣)

(٢) Deanesly, P. 286 ؛ أرسلان ص ٨٦ حاشية ٢ العرب والإسلام ص ١٢٧ -

إقليم روسيون Rousillon قرب بي سرده . وهذه تابعة لأسبانيا ، وفي شمالها حصن يظن أنه كان مقرا للأمير الباب من قبل المسلمين (١)

كان ابن أبي نسعة ، قد أسر ابنة الدوق أود في إحدى غزواته ، واسمها نيمورانس Numerance أو منين Minine أو لامبيجي Lampégie ، وقد تزوجها وهادن الدوق وأمنه من غارات المسلمين ويقال إنه كان لا يفارقها ولا يرى الدنيا إلا بها ، وذلك لفرط جمالها (٢) ، وتشبه هذه الزيجة زيجة عبد العزيز بن موسى بن نصير من أرملة لوذريق ، على أنه يغلب على رواية زواج ابن أبي نسعة من ابنة أود أنها موضوعة (٣)

ولذلك ، عندما صدر أمر عبد الرحمن الغافقي لأمير الثغر بمحاربة الدوق ، حاول ابن أبي نسعة أن يؤجل الحرب لارتباطه بالدوق بالمصاهرة والعهد الذي بينهما ، عرف عبد الرحمن زواجه من ابنة الدوق وأفهمه بأن العهد الذي عقده معه دون عليه لا يلزمه ، وعليه أن يتحرك للجهاد دون مراجعة . فلم يسع ابن أبي نسعة إلا أن نبه صهره للخطر الذي يوشك أن يداهمه ، وأظهر عصيانه ، وحينئذ أرسل الغافقي جيشا بقيادة ابن زيان ، للقبض على أمير الثغر ، الذي هرب مع أنصاره وزوجته إلى الجبال ، تتبعه الجيش وقبض عليه وقتله واجتزأ رأسه وأرسله إلى عبد الرحمن (٤) ، وكذلك

(١) أرسلان ص ٨٨ حاشية ٥ ، Ozy, I ; Deanesly, P. 286

(٢) أرسلان ص ٨٨ حاشية ٥

(٣) انظر العرب والإسلام ص ١٢٥ ، ١٢٧ - ١٢٨ ؛ L'ari Prov. I.

PP. 60 .. 1

(٤) Deanesly, P 286

إليه زوجة الفتيل ، ويقال إن عبد الرحمن الغافق صاح عندما رآها ،
وقد هاله جمالها : « والله ما كنت أظن أن يوجد مثل هذا الصيد في جبال
ألبرت ، وأرسلها هدية إلى الخليفة هشام بدمشق حيث تزوجها (١)

كان القضاء على أبي نسعة وثورته في عام ٧٣١ م (٢) ومن ثم تحرك
الغافق لغزو فرنسا . وعبر جبال ألبرت في أوائل صيف عام ٧٣٢ م من
ممرات رونسفالة (٣) . واتجه شرقا . في جنوبي غالة ، ليضلل الفرنجة عن
وجهته الحقيقية . وهي دوقية أكويتانيا . وأخضع مدينة أرل
Arelatum التي خرجت عن طاعة المسلمين وتوقفت عن دفع الجزية (٤)
وبعد أن تم له ذلك وأمن ظهره . اتجه نحو الغرب لمداخمة دوقية أقطانيا .
واجتاح في طريقه غشقورينا Gascony والتي بالدوق عند التقاء الجرون
بنهر دوردني Dordogne . وانتصر انتصارا كبيرا على الدوق . وكان عدد
قتلى الفرنجة في هذه الواقعة أكثر من أن يحصى (٥) . حتى قال المؤرخ
إيزيدور الباجي Isidoro Pacense : إن الله تعالى وحده هو القادر
على إحصائهم . (٦)

(١) أرسلان ص ٨٨ - ٨٩ ؛ انظر فجر الأندلس ص ٦٨ ، ١٠٦ ، ٢٥٠ - ٢٥٢

(٢) Deanesly, P. 286 ; De Marlès PP. 130 ... 136

(٣) انظر ما يلي

(٤) فجر الأندلس ص ٢٦٥ ؛ Albert, PP. 8 .. 17

(٥) Scott, I, P. 297

(٦) عبارة لإيزيدور : "Deus Numerum morientum Vel Pereuntium
recognoscat. "

(عن فجر الأندلس ص ٢٦٦ حاشية ١)

تفهم الدوق عن عاصمته بردال Bordeaux . ومضى الغافق في طريقه متتبعا مجرى نهر الجارون . واكتسح في طريقه جميع ما صادفه من عقبات . حتى استولى على بردال بعد مقاومة قصيرة (١) ودخلها ونهبها (٢) . واندفع المسلمون شمالا في السهل المتسع الذي يحده شمالا نهر اللوار وجنوبا نهر الجارون . ووصلوا إلى مدينة بوايتيه ؛ ونهبوا كنيسة القديس هيلري St. Hilary . ثم استعدوا لنهب كنيسة القديس مارتن St. Martin في تور Touro (٣) . ثانياً مدن الدوقية . بعد العاصمة بردال (٤)

ولما بدا عجز الدوق أودواضحا ، استصرخ بقارله (شارل مارتل) حاجب قصر الميروفنجيين . وكان قارله ابن يمين هرستال صاحب الأمر والنهي في دولة الفرنجة الميروفنجيين ، الذين ضعفوا في ذلك الوقت . إن ضعفهم بدأ منذ وفاة الملك داجوبرت الأول Dagobert I (٦٢٩ — ٦٣٩ م) حتى اشتهر الملوك الذين خلفوه باسم « الملوك الضعفاء » . أما ملك الفرنجة (٥) المعاصر في ذلك الوقت فهو تيري الرابع Thiery Iv (٧٢٠ — ٧٣٧ م) .

(١) Scott, I, P. 297

(٢) فجر الأندلس ص ٢٦٦ ؛ Lévi .. Grovercal, I. PP. 139 ; De Marlés, P. 60 .. 61

(٣) Deanesly P. 286

(٤) فجر الأندلس ص ٦٦

(٥) Mott & Dec , Middle Ages, PP. 28 .. 32 ;

راجع ما سبق عن الفرنجة, Scott. I, PP. 299 .. 303

لى قارله النداء . وكان من قبل لا يلتفت جديا لحركات العرب
فى جنوب فرنسا ، نظرا للخلاف الذى بينه وبين دوق أكويتانيا ومطامع
شارل فى الدوقية ، وقد أورد المقرئ نصا . لتعليل تردد شارل قبل
هذا التاريخ ، قال :

« اجتمعت الفرنجة إلى ملكها الأعظم قارله ، وهذه سمة لملكهم .
فقلت له : ما هذا الحزى الباقى فى الأعقاب ! كنا نسمع بالعرب .
ونخافهم من مطلع الشمس ، حتى أتوا من مغربها ، واستولوا على بلاد
الأندلس ، وعظيم ما فيها من العدة والعدد ، بجمعهم القليل وقلة عدتهم ،
وكونهم لا دروع لهم ،

فأجابهم بما معناه :

« الرأى عندى ألا تعترضوهم فى خرجتهم هذه ، فإنهم كالسيل يحمل
ما يصادفه ، وهم فى إقبال أمرهم ، ولهم نيات تغنى عن كثرة العدد ، وقلوب
تغنى عن حصانة الدروع . ولكن أمهلوهم حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم
ويتخذوا المساكن ، ويتنافسوا فى الرئاسة ويستعين بعضهم على بعض ،
حينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر .. »

قال المقرئ : « فكان والله كذلك بالفتنة التى طرأت بين الشاميين
والبليدين (١) ، والبربر والعرب ، والمضرية واليمنية ، وصار بعض

(١) المقصود بالبليدين العرب القدماء الذين جاءوا من المدينة بصفة خاصة ومن الحجاز
بصفة عامة وأسهموا فى الفتح الأول ، واستقروا فى المناطق الحصبة الجنوبية من أسبانيا ،
لأنهم السابقون فى الفتح والاستقرار ، وعرفوا بالبليدين تمييزا لهم عن الهجرات التى طرأت على
الأندلس بعد ذلك (العبادى ص ١٥٨ ، فجر الأندلس ص ٣٥٦)

المسلمين يستعين على بعض بمن يجاورهم من الأعداء ، (١)

أدرك شارل مارنل أن خطر المسلمين أصبح مباشراً على مملكة الفرنجة بعد أن تقدموا هذا التقدم في فرنسا . واجتاحوا معظم أكويتانيا . وأدرك حاجب قصر الفرنجة كذلك أن العرب سوف لا يقفون عند حد إخضاع دوقية أكويتانيا . لذلك استجاب إلى نداء الدوق ، وأنهى حروبه ضد الفريزيين Frisii والسكسون والبافارين .

كان الجيش الإسلامي يختلف عن جيش شارل من حيث السلاح والزي والفن الحربي (٢) . والتقى الفريقان في المعركة المشهورة بين مدينتي تور وبوايتيه . على مسافة ٧٠ كم جنوبي نهر السين . كان عبد الرحمن الغافقي قد حاصر تور واستولى عليها ودخلها عنوة على مشهد من جيش أعدائه (٣) .

استمرت المعركة ثلاثة أيام أو سبعة . ورغم تفوق جيش الفرنجة من حيث العدد إلا أن الروح المعنوية في الجيش الإسلامي تفوق نظيرتها عند الفرنجة ، أحسن العرب البلاء في القتال . لولا وقوع أمر أدى إلى هزيمتهم ، ذلك أن دوق أكويتانيا عرف نقطة ضعف في الجيش الإسلامي ، وعمل على استغلالها ، وهي شدة حرص العرب على الغنائم التي ظفروا بها ،

(١) نفج الطيب ج ١ ص ١٢٩

(٢) انظر : ناكيتوس والشعوب الجرمانية (ترجمة المؤلف) ص ٥٠ - ٥٣ - ٦٠ - ٦١ ، المبادئ ص ٥٧ - ٥٨

(٣) أرسلان ص ٩٠ : ١٤٢ ، ١٤٠ . De Maré PP. 140

وحملوها معهم ووضعوها وراء خطوطهم^(١) أراد الدوق أود أن يشغل المسلمين بغنائمهم ، وكانوا مثقلين بها ، لعل ذلك يخل بنظامهم في أثناء القتال فقام بحركة التفاف سريعة وهاجم مؤخرة الجيش العربي حيث توجد الغنائم ، ولقد كان ما أراد الدوق ، فقد اختل نظام الجيش الإسلامي ، بأن تراجع جانب منه لإنقاذ الغنائم ، بينما بقي الجانب الآخر يقاتل .

حقيقة ، فكر عبدالرحمن الغافقي في أمر الغنائم من قبل أن يقوم الدوق بحيلته ، ففي أول المعركة ، أوشك أن يأمر جيشه بتركها ، لكنه خشي بطش الجيش وتقاعسه وغضبه . فأذن له في حفظها وهو كاره . فلما رأى عبدالرحمن وقوع الخلل بسبب حركة الدوق أود ، حاول أن يصلح الأمر ؛ فتعرض للقتال أكثر مما يجب . وقتل في المعركة . وذلك في رمضان ١١٤ هـ / أكتوبر ٧٣٢ م^(٢) .

وبذلك أمسى الجيش الإسلامي من غير قائد . ففت هذا في عضد الجند وأخذته أعداؤه من كل جانب حتى قتل عدد كبير من المسلمين ، وعادت فلوله مستترة تحت جناح الظلام في غير نظام ، تريد النجاة . ولما أصبح شارل مارتل . لم يجد أمامه جيشاً يقاتله . فاكتفى بذلك ولم يطارده الجيش المنهزم

(١) Scott. I, PP. 304 .. 305

(٢) العبادي ص ٥٩ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٢٠ (الطبعة الجديدة) ، العرب والإسلام من ١٢٨ — ١٣٤ ، أرسلان ص ٩١ ، فجر الأندلس ص ٢٧٤ — ٢٧٥

Deanesly P. 286 ; Lane Poole. op, Git PP. 29..30. Pirenne. A History of Europe. P. 64 ; Lévi Provencal. I. PP. 61-62. Pirenne Moh. & chal. P. 156.

إذ خشى أن تكون مكيدة مدبرة لجره إلى كمين ، على عادة العرب ولذلك اكتفى بهذا النصر وعاد إلى بلاده .

هذه هي وقعة «بلاط الشهداء» وسميت كذلك لكثرة من استشهد فيها من المسلمين . ومكانها هو المعروف اليوم باسم Moussais - la. Bataille والمقصود بلفظة «بلاط» في مصطلح مسلمي الأندلس : قصر أو حصن حوله حدائق تابعة له ، وهذه الكلمة مشتقة من الكلمة اللاتينية بلاتيوم Palatum ، وعلى هذا ، فبلاط الشهداء معناها : قصر الشهداء مما يفهم منه أن مكان الواقعة كان إلى جوار قصر أو حصن كبير (١) .

وقد بالغ المسيحيون في تقدير عدد القتلى من المسلمين ، حتى أوصاهم فشر Fisher مثلاً ، إلى ٣٧٥ ألف ، نقلاً عن بولس الشماس (٢) . وهذا بطبيعة الحال غير معقول . فليس من اليسير وقتذاك حشد مثل هذا العدد أو ما يقاربه ، على كثرة الحروب القائمة في ذلك الوقت ، فضلاً عن صعوبة التكوين والمواصلات .

على أن وقعة بلاط الشهداء تعتبر فاصلة في التاريخ العام ، من وجهة النظر الأوربية . فقد ترتب عليها تغيير مجرى التاريخ إلى حد كبير . وقد عرض أكثر من مؤرخ لهذه الواقعة . فقال جيبيون Gibbon إنه لو انتصر العرب في تور بوايته لتلى القرآن وفسر في أكسفورد وكبردج . أما فشر Fisher

(٢) جغرافيا الأندلس ص ٢٧١

(١) فشر : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى (ترجمة زيادة والباز) ص ٦٧ .

فقد قارن بين انتصار الفرنجة هذا على العرب وبين انتصار البيزنطيين على المسلمين عام ٧١٧ - ٧١٨ م وذكر أنه لو دخل العرب القسطنطينية لوجدوا بين مسيحي شرق أوروبا ، مجالا للدعوة الإسلامية ، وذلك بالقياس إلى نجاح العثمانيين في القرن الخامس عشر ، ولذلك يسهل تخيل نجاح المسلمين الديني قبل العثمانيين بسبعة قرون . حين كانت الشعوب البلقانية والروسية لا تفقه من المسيحية إلا نزراً يسيراً . ولا تدرى من النظم والمعتقدات الدينية إلا قليلاً . على عكس غرب أوروبا حيث اصطدم المسلمون بقوة مسيحية منظمة أركانها على شيء كثير من تراث الإمبراطورية الرومانية وجبروتها القديم . ولو تم لهم النصر فرضاً في تور . لظال بينهم وبين فتح فرنسا وتحويلها إلى الإسلام ، عقبات دونها عقبات (١) .

لم تحمل هذه الصدمة دون إعادة الكرة على فرنسا ، إذ إن الهزيمة وحدها لم تكن لتوقف العرب عند هذا الحد ، بل كانت لهم بعد كرات أعقبها النصر والفتح . غير أن أهمية وقعة تور ترجع إلى أن العرب ارتدوا عن فرنسا ولم يحاولوا إخضاعها إخضاعاً تاماً ، فضلاً عن أن الأحداث في هذا الجزء الغربي من العالم الإسلامي ارتبطت إلى حد كبير بالأحداث التي تقع في مركز الخلافة في شقيه (٢) .

(١) فشر : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى (ترجمة زيادة والباز) ص ٦٦ - ٦٧ ،

(٢) العبادي ص ٦٠ .

أسرع والى أفريقية عبيدة بن عبد الرحمن وأرسل مددا بقيادة عبد الملك بن قطن الفهرى ، خلفا لعبد الرحمن الغافقى ، ثم بعث بخبر الفاجعة إلى الخليفة الأموى هشام (١٠٥-٧٢٤هـ/٧٤٣ م) ومافعله ، فأمره الخليفة بغزو فرنسا وأخذها بالسيوف من كل جانب ، توجه عبد الملك أول الأمر إلى نواحي شمالى الأندلس وهاجم قطلونيا ، وقاعدتها برشلونة ، وأرغون ونبره (نافار) ، ثم عبر البرتات ، واتجه إلى لانجدوك Lunguedoc — وهذه المنطقة عبارة عن كونتية تولوز ومارك جوئيا أوسبتمانیه — وحصن المعاقل التى لا تزال بأيدي المسلمين . وكانت سبتمانیه فى ذلك الوقت فى فوضى واضطراب بسبب الحروب المتوالية وهزيمة المسلمين فى بلاط الشهداء ، وحاول بعض زعمائها انتهاز فرصة هذه الاضطرابات وتوزيع البلاد فيما بينهم ، بعد أن تلاشى أمر الدوق أود ، وأدى ذلك إلى صراع بينهم مما جعل بعضهم يرتضى فى أحضان المسلمين خشية وقوعهم تحت سلطة قارله أو سلطة الدوق أود (١) .

والواقع أن أهالى جنوبى فرنسا ، رغم انتصارات قارله على المسلمين ، كانوا يكرهون الفرنجة لأنهم برابرة فى نظرهم ، على حين أن أهالى جنوبى فرنسا تشبعوا بالحضارة الرومانية . وكان هناك خلاف جوهرى بين جنوب فرنسا وشمالها ، فبينما تسود الجنوب حضارة البحر الأبيض اللاتينية والبيزنطية تسود الصبغة الجرمانية شمالى فرنسا (٢) ، وهذا سر عدم ولاء

(١) فجر الأندلس ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

(٢) Deanesly. P. 286

بروفانس والمواطنين فيها للفرنجة الجرمان ، وفضلا عن ذلك ، فإن قارله ، عندما استرجع أملاك الكنائس والأديرة التي كانت بحوزة المسلمين ، لم يردّها على أهلها ، بل وزعها على رجاله ، وأكثر من ذلك ، لم تسلم كنوز الكنائس من نهب قارله وجنوده (١) . مما أغضب القساوسة وعامة الناس (٢) .

ويفسر هذا تحالف مورون Mauront ، الذي اتخذ لقب «دوق مرسيليا» مع المسلمين ، وكذلك أسقف أوكسير Oukser وغيرها ، وكان دوق مرسيليا يتحكم في أغلب إقليم بروفانس (٣) .

اتفق دوق مرسيليا مع يوسف بن عبد الرحمن الفهرى والى أربونة (٤) وزحفا معاً وعبرا نهر ردونه (الرون) واستوليا على أزل Orelatum عام ٧٣٥ م (٥) ، ثم حاصرت الجيوش المتحالفة مدينة فرتا Fretta ، وهى المعروفة اليوم باسم سان ريمى St. Remi ، ثم تقدمت هذه الجيوش

(١) Scott. I. P. 811

(٢) فجر الأندلس ص ٢٧٧ .

(٣) Deanesly, P. 286

(٤) صار يوسف بن عبد الرحمن الفهرى واليا على الأندلس فيما بعد (١٢٩ - ١٣٧ هـ / ٧٤٦ - ٧٥٤) وفي عهده كثرت الثورات والاضطرابات (انظر ابن عذارى ج ٢ ص ٥٢ - ٥٦ ، فجر الأندلس ص ٢٢٠ وما بعدها) .

(٥) Pirenne Moh. Ch. P. 156

واستولت على أفينيون Avenionun ، وهي التي يسميها العرب «صخرة أفينيون» (١) ، وتعرف اليوم باسم أفينيون Avignon (٢) .

وصل المسلمون إلى نهر ديرانس Durance ، أحد فروع الرون ، وهو الذي تنفّس عليه مدينة أفينيون ، عند نقطة اتصاله بالرون ، وظل المسلمون يتحركون في بروفانس أربع سنوات ، لم يجرؤ خلالها أحد على منازعتهم السلطان فيها (٣) .

أما قارله ، فقد زحف عام ٧٣٣ م واستولى على لودون (ليون) Lyons (٤) ، وكان المسلمون قد تخلّوا عنها بعد وقعة بلاط الشهداء كما تخلّوا عن برجنديا . وفي عام ٧٣٥ م ، توفي الدوق أود ، ووافق قارله على أن يخلف هينود Hunaud ، أحد أبناء الدوق ، أباه في منصب الدوقية ، مع تبعيته لشارل ، فأقسم هينود بيمين الولاء له على النحو الإقطاعي ، إذ صار هينود فصلا أو تابعا Vassus لسيد الفرنجة ، علما بأن نظام التبعية الإقطاعية في أوروبا لم يكن قد نضج بعد (٥) .

اطمأن عبد الملك بن قطن النهري إلى نجاح قائد يوسف الفهري ، فأنصرف إلى تدعيم سلطان المسلمين في إمارات جبال البرانس ، لكنه

(١) أرشيبالد لويس ص ١١٩ ؛ Scott. I. P. 309

(٢) Pirenne op. cit. P. 156

(٣) فجر الأندلس ص ٢٧٨ ، المسلمون في حوض البحر الأبيض ص ٦٨ .

(٤) Scott. I. p. 309

(٥) Deanesly, p. 286

هزم ، فولى الخليفة - مكانه - عقبة بن الحجاج السلولى عام ١١٦ هـ ،
 ٧٣٤ م ، والسلولى كما وصفه ابن عذارى « صاحب بأس ونجدة ونكاية
 للعدو وشدة ، وكان إذا أسر الأسير لم يقتله حتى يعرض عليه دين الإسلام
 ويقبح له عبادة الأصنام ، فيذكر أنه أسلم على يديه ألف رجل ، (١) .

لم يجد عقبة بن الحجاج السلولى ، فى تصرفات سلفه عبد الملك بن قطن
 القهرى ، ما يؤخذ عليه ، فعهد إليه بقيادة الخيالة وأرسله إلى الثغر ، وأخذ
 يعد العدة لعبور البرانس (٢) . واشتعل حماس المسلمين للثأر لوقعة بلاط
 الشهداء ، وحصنوا ما بأيديهم من مدن غاله ، فى لانجودوك Languedoc
 حتى ضفاف الرون ، وشحنوها بالمقاتلة ، ثم اجتاحتها منطقة دوفيني
 Dauphine شمالى بروفانس وضربوا مدينة سان بول تروا شاتو :
 St. Paul - Trois - Chateaux ، واستولوا عليها كما استولوا على مدينة
 دونزير Donzère وتابعوا زحفهم نحو الشمال ، واستولوا على فالانس
 Valence على نهر الرون ، واستعادوا ليون وبرجنديا (٣) .

استعد شارل مارتل لاسترداد ليون وبروفانس وأفنيون ، وتعتبر
 الأخيرة مفتاح وادى الرون ، كذلك اعتزم الاستيلاء على مرسيليا ، فإلى
 جانب الأهداف السياسية التى حملت شارل مارتل على قتال العرب ،

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٤١ .

(٢) ابن عبد الحكم ص ٢٩٣ ، أرسلان ص ٩١ - ٩٣ .

(٣) نفع الطيب ج ١ ص ٢٢٠ (الطبعة الجديدة) ، مؤنس: فجر الأندلس ٢٨٠-٢٨١

أرسلان ص ١٠٤ ، Lévi Provençal I.P. 6g

فهنالك العامل الاقتصادى ، إذ كان تحكم المسلمين فى فرنسا الجنوبية ،
يؤدى إلى ضيق اقتصادى شديد لبلاد غرب أوروبا (١) .

تقدم شارل مارتل مع ابنه هلدبرانـد Hildbrand عام ٧٣٧ م ،
وحاصر أفتيون حتى اقتحمها بعد أن استمات المسلمون فى الدفاع عنها ، ثم
حاصر أربونة ، معقل العرب فى جنوبى فرنسا ، وأميرها يومئذ الهيثم ،
Athima ، لكنه عجز عن فتحها ، إذ أسرع عقبة السلولى وأرسل جيشاً
عن طريق البحر ، نجدة لأربونة ، فقد كانت المواصلات البحرية هى الوسيلة
الأمينة بين مسلمى الأندلس وجنوبى فرنسا ، نظراً لخطورة الطرق البرية
عبر البرانس ، غير أنه بوصول هذه النجدة ، باغتها شارل قبل أن تنهيا للقتال
وقضى عليها ، بحيث لم ينبج منها إلا القليل ، الذى فر إلى أربونة أو عاد إلى
البحر . صمدت أربونة للحصار حتى اضطر شارل إلى الرحيل عنها لاجدد
ثورات الفريزيين والسكسون .

وقبل أن يرحل شارل ، خرب القلاع فى نيم Nimes وآجد Agde
وبيزى Bezies وماجلون Magallona ، وتعرف هذه المدينة الأخيرة باسم
« ثغر المسلمين » ، إذ كانت مرسى أميناً للسفن الإسلامية القادمة من أسبانيا
وأفريقية ، فكان تخريبه لها بقصد حرمان المسلمين من الإمدادات التى
تصل عن طريقها (٢) .

(١) Deanesly .P. 287

(٢) مؤنس: فجر الأندلس ص ٢٨١ - ٢٨٤ ، أرشيبالد لويس ص ١١٨ ،

Deane., P. 287; Scott.I. P. 311; Pirenne, op. cit' pp. 156 - 7

وخلال تلك الفترة (٧٣٧-٧٣٩) ثار مودون دوق مرسيليا مرتين ضد الفرنجة (٨٣٨ ، ٨٣٩ م) وجدد حلفه مع المسامين الذين ساعدوه. واضطر شارل مارتل أن يطلب المساعدة من ليتبراند Liutprand ملك اللومبارد ، ولما تجددت الثورات المحلية في جنوبي فرنسا عام ٨٤١ م ، تولى هلدبراند ، وأخوه بيبين (الذي عرف بالقصير) قمعها ، وذلك قبيل وفاة شارل بشهور (توفي شارل ٧٤١ م) (١) .

وبينما تلك الأحداث تجرى في حوض البحر الأبيض الغربي ، كانت الدعوة العباسية تثير الفلاقل في المشرق الإسلامي ، وشغلت بها الخلافة الأموية في أواخر عهدها ، فلم تتمكن من بذل العناية الواجبة بهذا القسم البعيد من العالم الإسلامي في الغرب ، حتى كان أمر هذا القسم هو كولا لأمراء أفريقية والأندلس وإمكانياتهم ، وإذا أضفنا إلى ذلك ثورة الخوارج في أفريقية ، التي سببت الكثير من المتاعب للخلافة الأموية بعد عام ٧٤٠ م ثم ثورة البربر ضد العرب في أسبانيا وتكرارها عام ٧٤٠ ، ٧٤٢ م وقيام بعض القبائل العربية بالفتن في أسبانيا عام ٧٤٥ ، ٧٤٦ م ، كل ذلك يفسر ما نتابع من بعض الهزائم في فرنسا ، مما أثر على الروح المعنوية في مسلمي الأندلس ، ومن ناحية أخرى نبه العالم الغربي إلى ما يكتنفه من خطر المسلمين .

وجاء ختام هذه الحوادث في قيام الخلافة العباسية عام ١٣٢ هـ - ٧٥٠ م وانتقال العاصمة الإسلامية أو مركز العالم الإسلامي من دمشق إلى بغداد

وذلك كله أدى إلى انقسام العالم الإسلامي (١) .

وبالمثل ، حدث تغير في العالم الغربي ، فقد زالت الدولة الميروفنجية وقامت الدولة الكارولنجية ، إذ حدث بعد وفاة شارل مارتل في أكتوبر من عام ٧٤١ م ، أن قسم النفوذ والسلطان في مملكة الفرنجة بين أبناء شارل الثلاثة وهم : كارلومان Carloman وبيبين القصير وابن غير شرعى هو جريفو Grito . وساعدت الظروف بيبين القصير حتى انفرد بالنفوذ عام ٧٤٧ م ، مع وجود ملك ميروفنجي ضعيف هو شلديريك الثالث Childeric III (٧٤٣ - ٧٥١ م) . وفي زمن بيبين القصير - وعرف كذلك باسم بيبين الثالث - انتهى حكم الميروفنجيين وقامت أسرة جديدة هي الأسرة الكارولنجية بفضل دهاء بيبين القصير وقوته وتأيد البابوية له .

أرسل بيبين القصير في عام ٧٥٠ م ، بعثة إلى البابا زكريا Zacharias مؤلفة من برخارد Burchard أسقف فرزبرج Wirzburg وفولراد Fulrad مقدم دير سانت دينس ، واستفتت البعثة البابا في « أيهما أجدر بحمل صولجان الملك ؟ شلديريك الذى يتولى ولا يحكم ، أم بيبين الذى دعم ورعى جميع شئون المملكة ؟ »

أجاب البابا : « باسم بطرس الخوارى ، أن بيبين هو الملك (٢) » . وتم

(١) ابن الأثير ج ٥ ص ١٤٣ وما بعدها ، الفخرى في الآداب السلطانية ص ١٢٣ -

١٢٤ ، الطبرى ج ٩ ص ١٢٣ وما بعدها ، العبادى ص ٦٠ - ٦١ ، Deanesly, P. 204 .

(٢) انظر ما سبق (ص ٢٣) .

Lavisse, I, PP. 270-79; Funk-Brentano, P. 201; Deanesly, P. 201.

تتويج ييبين ملكا على الفرنجة في كندراتية سواسون Soissons على يد
المبشر الإنجليزى بونيفاس Boniface ، وذلك في خريف عام ٧٥١ م
(١٣٣ هـ) ، ثم أعاد البابا تتويجه بنفسه بعد ذلك بثلاثة أعوام ، كما توج
معه ولديه : شارل (شارلمان) وكارلومان ، ومنحه لقب « بطريق الرومان » ،

ومن ثم تدعم مركز ييبين القانونى ، وصار باستطاعته أن يتدخل في
شئون إيطاليا ، وأن يقارن بالحكام الأقوياء فيها وفي القسطنطينية وأسبانيا
الإسلامية وحتى بغداد ، بل صار ييبين أقوى ملك في غرب أوروبا ، ويتمتع
بتأييد البابوية ورجال الدين . وكانت البابوية في حاجة إلى مساعدة
الفرنجة ضد اللومبارد في إيطاليا (١) .

الخلاصة : أن الوضع السياسى في منتصف القرن الثامن الميلادى
وخلال النصف الأول من القرن الثانى الهجرى ، قد تبلور في وجود
ثلاث قوى عالمية هي : الإمبراطورية الإسلامية (الأمويون ثم العباسيون)
والإمبراطورية البيزنطية ، ثم دولة الفرنجة الكارولنجيين .

...

وخلال تلك الأحوال المضطربة في العالم الإسلامى ، مشرقه ومغربيه ،
قام المسيحيون في مدن سبتهانيا ، بمساعدة الجيش الفرنجى ، تحت قيادة
قوطى يسمى أنسمندس Ancemundus وطردهوا العرب من سبتهانيا ومدنها

عام ٧٥٢ م ، واستعاد الفرنجة أغلب مدنها مثل نيم وآجد وبيزي وما جلوت (١) .

أما أربونة ، وهي آخر حصن قوى للمسلمين ، فقد حاصرها الفرنجة وطال حصارها لمناعتها ، وتمكن المسلمون خلال الحصار من قتل القائد القوطي في كمين ، وصادف ذلك وقوع مجاعة في جنوبي فرنسا عطلت حركات الجيوش ، وبقيت أربونة ممتنعة على أعدائها ، ولاسيما أن ييبين ملك الفرنجة ، شغل في إخماد بعض الثورات التي قامت في بلاده (٢) .

كما أن أسبانيا في ذلك الوقت شغلت بدخول عبد الرحمن الداخل الأموي وتأسيس الدولة الأموية فيها ، وبعد أن استتب الأمر لعبد الرحمن الأموي عام ١٤٠ هـ - ٧٥٨ م (٣) ، التفت إلى مدينة أربونة المحاصرة ، وأرسل لها مددا بقيادة الأمير سليمان الأموي ، ويرجح أن اسم هذا الأمير هو : أبو سليمان حبيب بن عبد الملك بن عمر بن الوليد بن عبد الملك بن مروان (٤) ، ولكن عصابات المسيحيين المنتشرة في جبال البرانس قضت على هذا المدد (٥) .

(١) Pirenne, Moh. & charl. P. 157 ; Deansely, P. 294

(٢) فجر الأندلس ص ٢٨٨ - ٢٨٩ ، Deanesly, P. 294

(٣) انظر : المقرئ : المفق ج ٤ ورقة ٥٣ - ٥٥ ، أخبار مجموعة ص ٤٦ - ٥٦ ، ابن عذاري ج ٢ ص ٦٠ - ٧٠ ، أعمال الأعلام ص ٧ - ٩ ، نفح الطيب ج ١ ص ١٥٤ - ١٥٥ ، ابن القوطية ص ٤٥ وما بعدها .

(٤) فجر الأندلس ص ٢٩٠ - ١ .

(٥) فجر الأندلس ص ٢٩٠ ،

Lóvi-Prov., I. PP., 12-14, 95-103 Scott, I, PP, 391-7 ; LanerPoole, op. cit., PP. 60-63.

ولما طال حصار أربونة ، تأمر السكان المسيحيون بها ضد المسلمين وعولوا على خيانتهم والإيقاع بهم ، فاتفقوا سرا مع يبين القصير ، على تسليمه المدينة بشرط أن يتركهم أحراراً في مدينتهم مستقبلاً . وقاموا على الحامية الإسلامية في أربونة فأجهزوا عليها ، واقتحموا أبواب المدينة وفتحوها لجيوش الفرنجة فدخلتها عام ٧٥٩ م . وبذلك قضى على الحكومة الإسلامية في أربونة . بعد أن ظلت بها نحو أربعين سنة (٧٢١ - ٧٥٩) (١)

كان فتح الفرنجة لسبتانيا قد أفاق دوق أ كويتانيا ، إذ أضحى يبين في وضع يمكنه من فرض حكمه المباشر على الدوقية ، التي طالما طمع فيها الفرنجة ، وتذرع يبين لذلك بأن الدوق كان يظهر جريفو Grifo منافس يبين ، فضلاً عن أن الدوق صادر أملاك الكنائس الفرنجية في دوقيته (٢) .

ولذا تفرغ يبين لدوقية أ كويتانيا في الفترة ما بين ٧٦٠ ، ٧٦٣ م ، وأرسل لها الجيوش لغزوها في كل سنة ، واتخذ من قلعة بوج Bourges قاعدة لغاراته عليها . وأخيراً اندفع الفرنجة في عام ٧٦٦ ، إلى وادي الجارون وأخضعوا الدوقية ، ودبر يبين مقتل الدوق في عام ٧٦٨ م . وهي السنة التي مات فيها يبين نفسه ، وبهذا الفتح قويت ملكة الفرنجة حتى اعتبرت أن جبال البرانس هي الحد الطبيعي لبلادها (٣)

(١) فجر الأندلس ص ٢٩٠ - ٢٩١ ، أرسلان ص ١١٢ - ١١٣ (عن رينو) ، أرشيبالد ص ١١٩ .

(٢) Deanesly, P.294

(٣) Ibid, P. 295

أما موقف المسلمين ، بعد سقوط سبتمانيا ؛ فكان ضعيفاً إذ دأب الفرنجة على إثارة الفتن بين زعماء المسلمين الطامحين ، وتشجيع الطامعين منهم على الاستقلال بالولاية التي يحكمها ، كما اتصلوا بالمسيحيين في أسبانيا ؛ في قطلونيا وأرغون Aragon (١) ونافار ، وشجعوهم على توحيد كلمتهم ضد المسلمين ، وكانت الأحوال ملائمة بسبب موقف الخلافة العباسية من الأمويين الذين اغتصبوا الحكم في أسبانيا .

* * *

كان المنصور قد فشل في هزيمة عبد الرحمن الداخل - صقر قریش - ، حين أرسل أسطولا بقيادة العلاء بن مغيث اليحصبي عام ١٤٦هـ / ٧٦٣م ، ونزلت قوات العباسيين بباجه Beja (٢) ، والتقت بجيش عبد الرحمن الداخل قرب أشيلة ؛ وانتصر عبد الرحمن وقتل العلاء وكثير من جيشه ؛ وبعث عبد الرحمن ببعض رموس القتلى إلى القيروان ومكة ؛ حيث ألقيت فيهما سراً ؛ وعلق بطاقة بأسماء كبار القتلى في آذان الرموس التي ألقيت ؛ فلما رآها المنصور في مكة ؛ وكان يحج في تلك السنة ؛ ارتاع وعلق بقوله : « ما هذا إلا شيطان والحمد لله الذي جعل بيننا وبينه البحر » (٣) .

(١) أرغون Aragon هي غير أرجونة Arajona : الأولى لإقليم والأخرى مدينة ، بالأندلس (انظر الروض المعطار ص ١٢) .

(٢) تقع هذه المدينة جنوبي البرتغال ، وكانت تسمى زمن الرومان باسم : Pax Iulia (الروض المعطار ص ٣٦ - ٣٧)

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٠ - ١٢٤ ، نفع الطيب ج ١ ص ١٥٦ ، أعمال الأعلام ص ٩ ، أخبار مجموعة ص ١١٨ ، ابن عذاري ج ٢ ص ٧٧ - ٧٩ ، ابن القوطية ص ٥٧ - - ٥٨ ، Scott, I, pp. 398-9

كذلك بات كل من العباسيين في بغداد ، والأمويين في قرطبة ،
يتربصون الدوائر ، كل بصاحبه ، ولم يرأيهما حرجاً في التحالف مع
المسيحيين ضد بعضهما البعض ، ومن ثم قامت علاقات بين بلاطى قرطبة
وبيزنطة من ناحية ، وبين بلاطى بغداد والفرنجية من ناحية أخرى. وجاءت
بعثة فرنجية من قبل يبيين القصير إلى بغداد عام ١٤٨هـ / ٧٦٥م ، حيث مكث
أعضاؤها ثلاث سنوات ، عادوا بعدها محملين بالهدايا ، ومعهم رسل الخليفة
المنصور . عادت البعثة عن طريق مرسيليا إلى متز Metz باللورين . حيث
قضى أعضاء السفارة الإسلامية الشتاء ، وبالع يبيين في إكرامهم وأنزلهم
بقصر سل Sels على ضفاف اللوار ، ثم عادوا عن طريق مرسيليا (١) .

ومات يبيين فجأة في عام ٧٦٨م على أثر مرض لم يممه طويلا ، فلم تكن
هناك فرصة للصراع بين ولديه : شارلمان Charlemagne وكارلومان
Carloman . وحكم الأخوان ، كل في عاصمته ، الأول في نويون Noyon
والثاني في سواسون Soissons ، وكانت المدن الهامة في نصيب شارلمان ،
وهو الأكبر ، هي : أكس Aix التى لم تكن كبيرة في ذلك الوقت ونويون
وروان Rouen وتور Tours ومن مدن أخيه الهامة : سواسون وريمز
Rheims وترير Trier وباريس وأورليان (٢) .

ثم شامت الأقدار أن يموت كارلومان عام ٧٧١م ، فضم شارلمان أملاك

(١) أرسلان ص ١١٨ — ١١٩ ، ديفيز : شارلمان (ترجمة البار) ص ٢٩٥ ،

Pirenne ; Deanesly, P. 294 ; Moh. & Ch., P. 160

(٢) Deanesly, p. 322-3 ; Funk-Brentano p. 302 ; Lavissee I PP. 280-81

أخيه ، وظلت دولة الفرنجة موحدة غير مقسمة نحو ثلاثة وأربعين عاما
وهكذا خلا الجو لما سوف يقوم به شارلمان ، وبرهن على أنه جدير بما
اتفق له من حظ (١).

وكانت علاقة شارلمان بالعباسيين استمراراً للود الذي قام بين أبيه
بيبين وبين الخلافة العباسية من قبل ، عاصر شارلمان ستة من خلفاء بني
العباس هم : المنصور (١٣٦-١٥٨هـ / ٧٥٤-٧٧٥م) والمهدي (١٥٨-١٦٩هـ /
٧٧٥-٧٨٥م) والمهدي (١٦٩-١٧٠هـ / ٧٨٥-٧٨٦م) والرشيد (١٧٠-
١٩٣هـ / ٧٨٦-٨٠٩م) والأمين (١٩٣-١٩٨هـ / ٨٠٩-٨١٣م) ، وأخيراً
أوائل عهد الخليفة عبد الله المأمون (١٩٨-٢١٨هـ / ٨١٣-٨٣٣م) .

وفي زمن شارلمان قل خطر المسلمين على فرنسا منذ طردهم من سبتمانيا
ومنذ إخضاع الفرنجة لدوقية أكويتانيا ، وهذا فضلاً عن عنصر الضعف
العام في الجبهة الإسلامية الكبرى ، وهو الانقسام القائم بين شطري العالم
الإسلامي في المشرق والمغرب .

ومع هذا ظل الطريق أمام الزحف الإسلامي مفتوحاً بين فرنسا
وأسبانيا . وذلك من حصن سرقسطة الواقعة على نهر إبرة Ebro . وكذلك
من المعاقل الإسلامية في برشلونة ووشقة Huesca ومع أن ملكة أشتوريا
المسيحية الصغيرة موالية للفرنجة ، إلا أنها ضعيفة بحيث تعجز عن إشغال
القوات الإسلامية .

(١) فشر (ترجمة زيادة والباز) ص ٨٣ ،

H. G. T. P. 310 ; Lavisse T. pp. 280-81 Moll & Dec pp. 33-8 ;

رغب شارلمان في التدخل في أسبانيا بدافع الحماس الديني لحماية المسيحيين بها ، وبدافع الحلم الإمبراطوري الذي يداعبه في تكريم إمبراطورية واسعة تعيد ذكرى الإمبراطورية الرومانية القديمة عظمة واتساعاً (١) .

تذرع ملك الفرنجة بحق العباسيين في أسبانيا وتشجع بالعلاقات الودية التي ربطت أسرته بالخلافة العباسية (٢) ؛ وجاءته الفرصة حين هرب بعض الموتوريين من «صقر قریش» (٣) ؛ والذين كما يصفهم المرحوم الأستاذ الثبت العبادي «صغرت نفوسهم ؛ فأصبحوا لا يهمهم إلا تحقيق مصالحهم الشخصية» (٤) ، اتصل هؤلاء بالمنصور على أن يكونوا هم واسطة الاتصال بينه وبين شارلمان ، لتدبير غزو الأندلس (٥) .

(١) Lévi-prov. op. Cit. pp. 118-120 ; Scott. I p. 405

(٢) De Marles. pp. 233-5 ; Lavisso I; pp. 303-4 Deanesly. pp. 350-1

(٣) كان المنصور هو الذي نعت بهذا اللقب ، فقد ذكر أن أبا جعفر المنصور قال يوماً لبعض جاسائه : أخبروني من صقر قریش من الملوك ؟ قالوا : ذلك أمير المؤمنين الذي راس الملوك وسكن الزلازل وأباد الأعداء وحسم الأدواء ، قال : ما قاتم شيئاً . قالوا : فمعاوية ؟ قال : لا ؛ قالوا : فعبد الملك بن مروان ، قال : ما قاتم شيئاً . قالوا : فن يا أمير المؤمنين ؟ قال : صقر قریش عبد الرحمن بن معاوية ، الذي عبر البحر وقطم القفر ودخل بلداً أعجيباً ، منفرداً بنفسه ، فصر الأمصار وجند الأجناد ودن الدواوين ونال ملكاً بعد انقطاعه ، بحسن تدبيره وشدة شكيته . إن معاوية نهض بمركب حمله عمر وعثمان عليه ، وذلاً له صعبه ، وعبد الملك ببيعة أبرم عقدها ، وأمير المؤمنين ، بطب عثرته واجتماع شيعته ، وعبد الرحمن منفرد بنفسه مؤيد بأمره ، مستصحب لعزمه ، وطد الخلافة بالأندلس وافتتح الثغور وقتل المارقين وأذل الجبابرة النافرين . فقال الجميع : صدقت والله يا أمير المؤمنين . « (أعمال الأعلام ص ٩ - ١٠ ؛ ابن عذاري ح ٤ ص ٨٨ - ٨٩ ؛ (انظر كذلك : Dozy I. PP. 38 382)

(٤) تاريخ الأندلس ص ١ ٧

(٥) Scott I; p. 403

هرب أولئك المتآمرون بزعامة سليمان بن يقطان بن العربي أمير
برشلونة في عام ١٦١ هـ / ٧٧٧ م ومعه أبو ثور صاحب وشقة (١) وتوجهوا
إلى مدينة بادربورن Baderborn في سكسونيا حيث كان شارلمان يحتفل بانتصاره
على السكسون (٢) ، رحب بهم شارلمان ، واتفقوا معه على أن يسلموا له
بعض المدن في شمالي أسبانيا ، يقول ابن الأثير : « واستدعى سليمان قارله
ملك الأفرنج ووعده بتسليم البلد » (٣) . وتوجد صورة لاجتماع بادربورن
نقلها صاحب الحلال السندسية (٤) .

ولكي يجعل المتآمرون لعملهم صفة شرعية ، اتفقوا مع شارلمان على
أن يدخل الأندلس بوصفه حليفاً لبني العباس (٥) ، والمعروف عن ابن
العربي هذا أنه حالف من قبل بيبين القصير أبا شارلمان ، وبتشجيعه ووعوده
ثار ضد عبد الرحمن الداخل لكي يستقل ببرشلونة ، واستولى على
سرقسطة (٦) .

(١) دانفيل شارلمان ص ٢٩٦

(٢) Scott I p. 304 ؛ Dozy I ; p. 377

(٣) تاريخ الكامل ج ٦ ص ٢٢ - ٢٣

(٤) ج ٢ ص ١٣٣

(٥) انظر مايلي

(٦) أخبار مجموعة ص ١١٠ - ١١٢ ؛ ابن القوطية ص ٥٥ - ٥٦ ، ابن عذاري ج ٢
ص ٨٤ ، ابن الأثير ج ٦ ص ٢٢ - ٢٣ ؛ العبادي ص ٨١ ، أرسلان : غزوات العرب
ص ١١٦ - ١١٧ ، ١٢٠ - ١٢١ ، الحلال السندسية ج ٢ ص ١٣١ - ١٣٢

Lévi-Prov., I. PP, 121-2

ويضاف إلى حزب المتآمرين كذلك أبو الأسود بن يوسف الفهرى،
فقد خرج على عبد الرحمن وفشل في ثورته ، إذ تمكن صقر قریش من
القبض عليه وسجنه ، لكن أبا الأسود فر من سجنه بعد أن ادعى العمى ،
وكان عبد الرحمن الداخل قد قضى على أبيه يوسف الفهرى وإلى الأندلس
من قبل (١) .

وأيا كانت البواعث التي حملت المتآمرين على الاتصال بشارلمان ،
فإن الدعوة جاءت في الوقت المناسب ، إذ انتهى من إخضاع السكسون
في شمال ألمانيا ؛ ولم يبق أمامه إلا أن يتوجه لتحقيق أحلامه الإمبراطورية (٢)

كانت الخطة التي دبرها شارلمان مع المتآمرين هي : أن يعبر عبد الرحمن
ابن حبيب الفهرى المعروف بالصقابي (٣) إلى أفريقية ؛ حيث يعد جيشاً ؛
ويعود به لينزل في مقاطعة تدمير ؛ ويقوم سليمان بن يقطان أمير برشلونة
بتعميد الطريق أمام جيوش الفرنجة إلى سرقسطة .

حشد شارلمان جيشاً جراراً في ربيع ٧٧٨ م ؛ جمعه من البافاريين
واللوهبارديين والاستراسيين والبرجنديين وأهل سبتمانيا ؛ وسارت المؤامرة
في طريق تنفيذها ؛ غير أن تحديد الوقت في ذلك الزمان ؛ لم يكن من الدقة
بحيث توجه الضربة في وقتها المقدور ؛ ويرجع ذلك إلى صعوبة المواصلات

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٥٢ — ٥٥ ، ٧٢ — ٧٥

(٢) Dozy, I. P. 376 ; Deanesly, p. 351

(٣) سمي بالصقابي لأنه كما وصفه ابن عذاري وابن الأثير : كان طويلاً أشقر أزرق
أمير — أي قليل الشعر — (البيان ج ٢ ص ٨٣ ، تاريخ الكامل ج ٦ ص ٢١)

وبطء الاتصال . عاد ابن حبيب إلى الأندلس بالجيش الذي جمعه من أفريقية ونزل في تدمير ؛ فنهض إليه عبد الرحمن الداخل وقضى عليه ؛ ولم يستطع ابن العربي أن ينجده ؛ معتذراً بأنه لا يستطيع أن يبرح مكانه حتى تصل جيوش شارلمان ؛ وبعد أن فرغ عبد الرحمن الداخل من القضاء على جيش ابن حبيب ؛ توجه في الحال إلى سليمان وقضى عليه كذلك (١) .

قسم شارلمان جيشه إلى قسمين جنوبي وشمالى ؛ فأما الجنوبي فقد دخل أسبانيا عن طريق سبثمانيا وتوجه رأساً إلى برشلونة ؛ وأما القسم الشمالى ؛ ويقوده شارلمان بنفسه ؛ فقد دخل عن طريق ممرات جبال البرانس الوعرة (٢) ؛ ويحتمل أنه دخل عن طريق ممر رونسفال Roncevalles ولما لم تجد جيوش شارلمان العون المفروض ؛ تقدم الفرنجة إلى ملسكة نافار المسيحية وعاصمتها بنبلونه Panpeluna (٣) ؛ غير أن هذه المملكة المسيحية وغيرها من القبائل المسيحية المنتشرة في تلك المناطق النائية من شمالى أسبانيا لم تقدم المساعدة المنتظرة لشارلمان ؛ ونفرت من أن يتحكم فيها الفرنجة (٤) ؛ ولذلك اضطر شارلمان إلى حصار العاصمة بنبلونه ؛ ولم يفتحها إلا بعد قتال شديد (٥) . ولما توجه إلى سرقسطة التقى بالقسم الجنوبي من جيشه ؛

(١) العبادى ص ٣١١-٣١٠ PP. Berthelot. Op. Cit. P. 33; Lane-poole. Op. Cit.

(٢) Lévi Prov. I; pp. 123 .. 24

(٣) تبعد مدينة بنبلونه عن سرقسطة بنحو ١٢٥ ميلا ، وأماها كما يصفهم الحميرى « جاعة لصوص ، وأكثرهم متكلمون بالبنشقية لا يفهمون » (الروض المعطار ص ٥٥ - ٥٦)

(٤) غزوات العرب ص ١٢١ ؛ الحلل السندسية ص ٢ - ١٣١ - ١٣٢

(٥) المراجع السابقة

وفوجي شارلمان بأن المتحكم في سرقسطة لم يكن من أعوانه ؛ بل إن صاحب الأمر فيها يومئذ هو الحسين بن يحيى الأنصارى ؛ ورغم أنه من الخوارج على عبد الرحمن الداخل ؛ إلا أنه اعتصم داخل المدينة ودافع عنها دفاع الأبطال ؛ ولم يكن هدف المتآمرين أنفسهم في الواقع إلا أن يساعدوا شارلمان على الاستقلال بالولايات التي يطمعون فيها (١) فضلا عن أن خيانة سليمان لم تؤد إلى شيء ؛ إذ كان يصارع منافساً له على زعامة الحزب المناصر للعباسيين (٢) .

يقول دوزى Lozy : عند ما وصل شارلمان بجيشه ؛ لم يستطع ابن العربي أن يتغلب على نفور المسلمين من قبول دخول ملك فرنسا مدينتهم ؛ وكافح الحسين بن يحيى الأنصارى كفاح المستعيت ؛ ولما شعر ابن العربي أنه لم يستطع أن يوفى بوعده لملك الفرنجة توجه إليه وارتمى في أحضانه ؛ حتى لا يظن أنه خدعه (٣) .

وهكذا امتنعت سرقسطة على شارلمان ؛ فضرب عليها الحصار ؛ وخف عبد الرحمن الداخل لتجدتها ؛ ولما يئس شارلمان من وعود العباسيين ترك سرقسطة وسار نحو الجنوب واستولى على وشقه Huesca ؛ وصاحبها أبو ثور ثم استولى على برشلونة وجيرونا Gerona (٤) .

(١) المراجع السابقة

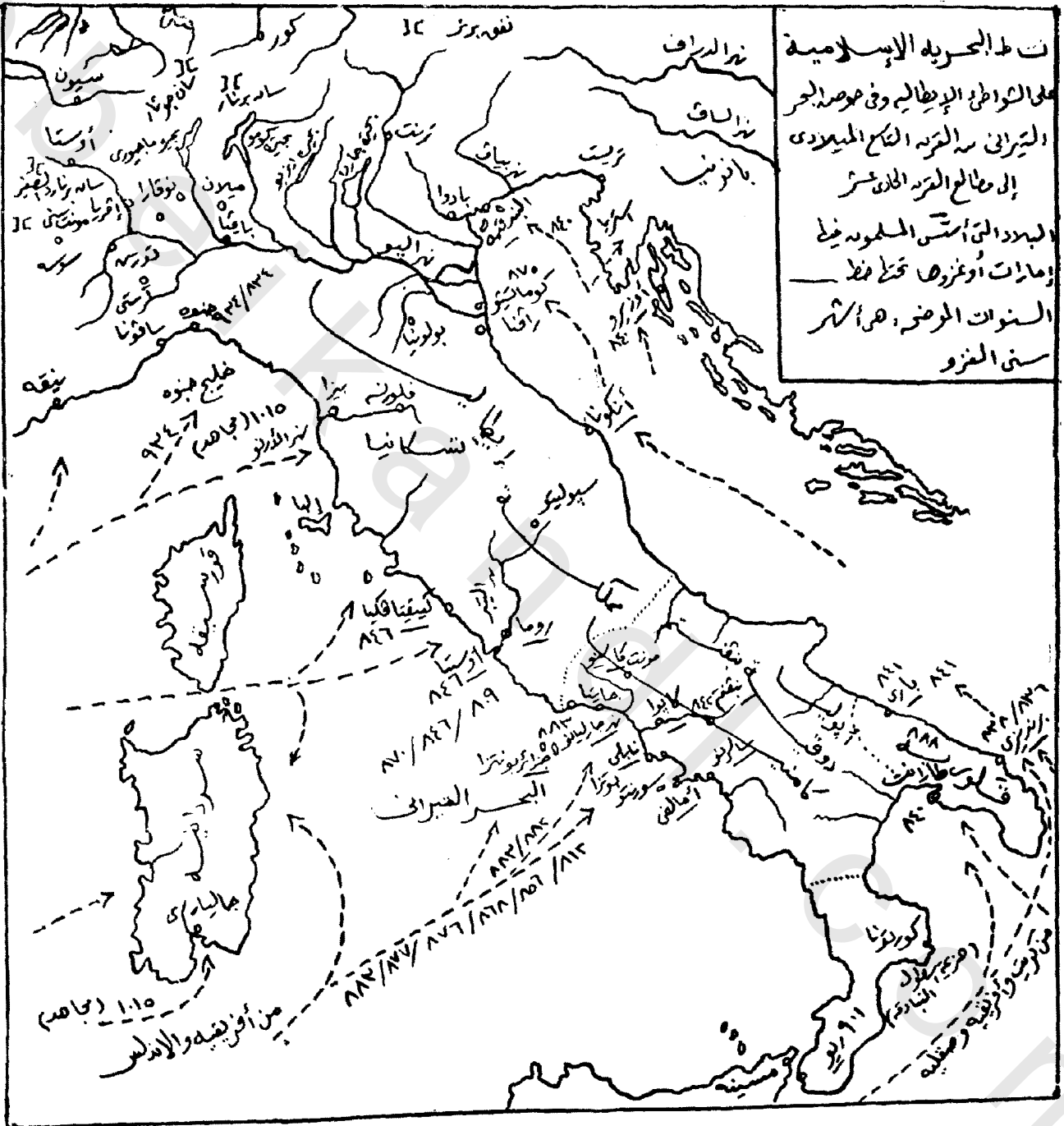
(٢) Scott P. 407

(٣) Lévi Prov. Les Musulmans de l'Espagne I. p. 379

(٤) العبادى ص ٨٢ ؛ Scott. I. pp. 406 - 7 ؛ De Marlès p. 175

الروض الماطر ص ١٩٤ - ١٩٥ Lévi Prov. op. Cit. p. 352 Deanesly ،
11 - 129 .

ت ط الحربية الإسلامية
 على الشواطئ الإيطالية وفي موصلة البحر
 المتوسط من القرن التاسع الميلادي
 إلى مطلع القرن الثاني عشر
 الهجري التي استقر المسلمون فيها
 وماتت أو غرقت تحت ضغط
 السنوات المرضية، هي الأثر
 سني الغزو



في ذلك الوقت علم شارلمان بتجدد ثورات السكسون؛ فقد انتهز هؤلاء فرصة انشغاله في المشروع الأسباني؛ وثاروا بقيادة زعيمهم الوطني فيتكيند wittekind واستولوا على مدينة دتز Deutz المقابلة لمدينة كولونيا على نهر الراين (١). ومن أجل هذه التطورات؛ اضطر شارلمان إلى الانسحاب من أسبانيا؛ بعد أن فشل مشروعه؛ وفي طريق عودته دمر أسوار بنبلونة لأنه عجز عن الاحتفاظ بها كنقطة ارتكاز له فيما وراء البرانس (٢).

أثار عمله هذا قبائل البشكنش Basques في نافار؛ ولما كانت هذه القبائل المسيحية عاجزة عن مناجزة ملك الفرنجة في حرب عريضة مكشوفة ولا سيما وأن شارلمان يمتلك فرقة فرسان قوية؛ رغم أن الخيل البشمية - كما يصفها الخيري - وأصلب الدواب حافزاً لخشونة بلادهم (٣). لذلك ترقب البشكنش مروره داخل عمارات البرانس الضيقة؛ عندما عاد يجر أذيال الخيبة من الطريق الشمالي إلى أقطانيا (أكوينانيا)؛ ولم تكن هذه القبائل المتفرقة في تلك المناطق الوعرة، تطمع في شيء أكثر من المغام والمؤن التي يحملها جيش شارلمان العابر؛ ولم تكن مدفوعة بروح وطنية أو نحوها (٤).

وقف البشكنش في صياصي الجبال، في كمين قرب يمر رونسفال أو

(١) Dozy. I. P. 379

(٢) Scott. I. P. 406 ; Deanesly. P. 351

(٣) الروض المعطار ٥٥ - ٥٦

(٤) العبادي ص ٨١ - ٨٢ ؛ Dozy. I. P. 380

وادي رونسفال Valley of Roncevalles ؛ وكان صقر قریش قد أمدهم بالسلاح وبعض الرجال ، وقدر بعض مؤرخي اللاتين أن عدد المسلمين الذين اشتركوا في هذه الواقعة يبلغ نحو ٣٠ ألف مقاتل (١) . انتظرت هذه القوات المتحالفة ، حتى مرت مقدمة جيش شارلمان ، وكان هذا الممر ضيقا مظلماً لتكاثف الغابات فيه وسط الجبال ؛ ويقود المؤخرة ثلاثة من أبرز قادة شارلمان هم :

السنبجال إجنهارد Egginhard (٢) وأنسلم Anselm كونت مقاطعة بلاتين Platine ورولان Roland حاكم مقاطعة بريتاني Brittany (٣) .

(١) يرجح أن عدد المسلمين كان كبيرا ، إذ يحتمل أن المسلمين الذين اشتركوا مع البشكنش في مهاجمة جيش الفرنجة ، لم يقتصرُوا على العدد الرسمي الذي قدمه صقر قریش ، فهناك المتطوعون المجاهدون ، ثم إن « أغنية رولان » رغم صفتها الأدبية ، أشارت كثيرا إلى المسلمين المقاتلين (انظر ما يلي)

(٢) السنبجال ترجمة للكلمة الفرنسية Senechal وأصلها اللاتيني : Sereseallus ، ومعناها النائب أو السكافل أو الكفيل ، على حد الاصطلاح العربي في تلك العصور (انظر المفريزي : السلوك ج ١ ص ٩٨٥ حاشية ٥)

(٣) مقاطعة بريتاني أو مادوك بريتاني March of Brittany في شمال غرب فرنسا ، أنشأها الفرنجة بمقتضى تنظيماتهم عام ٧٧٨ م ، وعين عليه كونت رولاند حاكما ؛ ويشبه هذا التنظيم ما وقع في الدولة البيزنطية حين أنشأت البثود Themes وهي مناطق عسكرية إدارية على الحدود . ويضم بند بريتاني كوتيتي : نانت Nantes ، رن Rennes . وسكان هذه المنطقة من السكالت Celts القدماء ، ويعرفون كذلك باسم البريطانيين نسبة إلى شبه جزيرة بريتاني التي يقيمون فيها ، وقد ظلوا على عدائهم وكراهيتهم للفرنجة الجرمان ، ولم يخضعوا لسلطانهم طواعية واختياراً ، ولذا كثرت ثوراتهم وجردت عليهم أكثر من حملة لإجبارهم على الخضوع ودفع الجزية ، من ذلك حملة بقيادة السنبجال أدولف Adulf في عام ٧٨٦ م ، وحملة أخرى عام ٧٩٩ م ، ولم تثبت سيادة الفرنجة على هذه المنطقة في وقت ما (انظر Deanesly PP 352 — 5—Brooke, PP. 65 100; Pirenne, A Hist. of Europe, P. 81; De Marlès, PP. 234 — 38; Lane - Poole, P. 36.)

انقض المسلمون والبشكنس على المؤخرة وأبادوها عن آخرها ، بعد أن أبدت شجاعة فائقة واستماتة في القتال ، وتقدر هذه المؤخرة بنصف جيش شارلمان ؛ حاقت هذه الكارثة بجيش شارلمان في يوم ١٥ أغسطس من سنة ٧٧٨ م (١). ولم يعلم شارلمان بها إلا مؤخرا ، إذ كانت المسافة بين مقدمة الجيش ومؤخرته نحو ثمانية أميال ، ومن بين القتلى الفارس رولاند ، المحبوب إلى سيده ، فلما علم بمصرعه ، حزن عليه أشد الحزن (٢).

لم تذكر الحوليات الملكية Royal Annals شيئا عن هذه الفاجعة ، وتغاضت عن تسجيلها أو تسجيل ما وقع فيها ، غير أن جميع المعاصرين ، كانوا يعرفون أسماء القتلى ، كما يقول أحد مؤرخي القرن التاسع الميلادي ، وكل ما ورد في الحوليات الملكية عن حوادث عام ٧٧٨ م عبارة مقتضبة هي :

« في هذه السنة ، توجه السيد شارل إلى أسبانيا ، حيث لقي مأساة كبرى ، (٣) . »

وأهمية هذه الواقعة من الناحيتين الحربية والسياسية ، بعيدة المدى ، فقد كانت مأساة حربية من غير شك ؛ ومن الناحية السياسية ، بددت حلم

(١) Dozy, I, P. 380 ; Scott, I, P. 407

(٢) الببادي ص ٨٣ ; Lévi - Provençal PP. 124 - 25

(٣) Deanesly. P. 352

شرلمان في إزالة السيادة الإسلامية عن أسبانيا وتكوين إمبراطورية على النسق الروماني ، تعيد ذكرى تلك الإمبراطورية العتيدة .

أما الأهمية الأدبية فقد طغت على ما عداها ، إذ ارتبطت هذه الواقعة بشخصية أقدر أبطال شارلمان ، وهو كونت رولاند ، الذي دافع ببطولة حتى مات وهو يردد اسم سيده شارلمان بعبارات أخاذة .

فقد كتبت ملحمة أو أغنية في القرن الحادي عشر الميلادي ، عرفت باسم « أغنية رولاند » ، The Song of Roland ؛ وهي من نوع الملاحم أو أغاني البطولة Chansons de Geste التي تدور حول الأعمال الكبيرة التي ارتبطت بشخصيات بارزة ، لتصبح أناشيد وأزاهير يتغنى بها الناس على مر الأجيال . كتب هذه الملحمة الشاعر النورماني تيرولد Turolد ، ويعدها الفرنسيون أول أنشودة حماسية في الأدب الفرنسي ، ولها أكثر من ترجمة باللغات المختلفة ، منها ترجمة سكوت ما نكريف Scott - Mancrieff التي ظهرت في لندن عام ١٩٢٠ م .

وتصف الملحمة المجتمع الفرنسي والتفكير الفرنسي في العصر الإقطاعي وهو القرن الحادي عشر ، رغم أن أصول حوادثها ترجع إلى نهاية القرن الثامن الميلادي ، من ذلك قول الشاعر على لسان تيرين Turpen رئيس الأساقفة الذي اشترك في الواقعة :

« في حوليات الفرنجة ، سجل :

« ما أورع الولاء لمليكننا ! (١) »

وبما جاء على لسان تيربن كذلك ، مشير إلى المسلمين الذين اشتركوا في الموقعة ؛
ومخاطباً مواظنيه يشد من عزائمهم :

« المعركة الوشيكة الوقوع ، أنتم لها .

« إنكم ترون المسلمين بأعينكم .

« صلوا وتضرعوا لنيل المغفرة .

« من أجل طهارة أرواحكم سوف أتضرع . . . الخ . . .

وأشارت الملاحمة إلى رولاند :

« إن كونت رولاند يتبختر في الميدان .

« ممسكاً بدندال (١) .

« لقد أوقع بالمسلمين أفدح الخسائر .

« تراهم واحداً فوق واحد ، صرعى كالأكوام . الخ . . .

وأخيراً تصور الأغنية كيف انتهت حياة رولاند ، وقد اضطجع إلى
جذع شجرة الصنوبر ورفع يديه إلى السماء ، فأرسل الله إليه الملائكة
والقديس ، فحملت روحه إلى الجنة ، ويقابل شارلمان بعد ذلك أود Aude
أرملة رولاند ويعزيها ، ويعدّها بتزويجها من ابن لويس ، فتأبى الحياة دون
رولاند ، وتسقط ميتة على أقدام شارلمان ، وهنا يستبد الحزن بشارلمان ،

(١) دندال Dunedal هو اسم سيف رولاند

فتعتلى* عيناه بالدموع ويعبث بلحيته الناصعة البياض ، فتساقط
شعرات منها .

أما حقيقة الوقائع التاريخية ، وما دار فيها من قتال فلم تشر الأغنية
بدقة إلى ذلك ، بل طغت عليها الصفة الأسطورية وتمجيد شارلمان دون
سند من الواقع التاريخي ، بل فيها كثير من الخطأ التاريخي ، منذ ذلك ،
إن شارلمان مكث في أسبانيا سبع سنوات لإخضاعها ، ودانت له جميع
شبه الجزيرة ماعدا سرقسطة ، وهكذا (١) . والخليفة العباسي المعاصر لهذه
الوقعة هو المهدي .

• • •

ترك شارلمان فكرة محاربة المسلمين دون تقرير حاسم أو نتيجة ،
والتفت إلى أطراف مملكته الشرقية ، حيث طالت حروبه وتكررت مع
السكسون (٢) ، كما التفت إلى تقوية سلطانه على أقطانيا (أكوتانيا) لحمايتها

(١) عن حملة شارلمان إلى أسبانيا ، وأغنية رولاند انظر :

Stephenson, C. Mediaeval History, PP. 273 - 278 ; Evans J. , Life in
Mediaeval France, PP. 88, 50 ; Basset, R. , Les Documents Arabes
sur l'Expédition de Charlemagne en Espagne (La Revue Historique, T.
Lxxxiv, 1904, PP. 286 - 295) ; Barrau - Dihigo , Deux traditions
Musulmanes Sur l'Expédition de Charlemagne en Espagne (Paris.
1925) , PP. 168 - 179 ; Calmette, J. , Charlemagne, Sa vie et Son œuvre
(Paris, 1915) . ; Halphen, L. Charlemagne et L'Empire Carolingien
(Paris, 1917, PP. 87 - 88 .

ديفتر : شارلمان (ترجمة الياز) ص ٢٨٥ — ٢٨٦

Lavisse, I, PP. 235 - 90 ; Berthelot, P. 315 ; Fuok - Bruntano PP. (٢)

من تجدد غارات المسلمين عليها ، وقد أصبحت هذه الغارات محتملة بعد فشله الذريع في حملة على أسبانيا ، فعين ابنه لويس ملكاً على أكويتانيا ، وعمره يومئذ سنة واحدة ، وهو من مواليد أكويتانيا ، أنجبته أمه خلال اشتباك أبيه مع المسلمين في أسبانيا ، ونظراً لصغر سنه ، عين له أبوه وصيين هما : أرنولد Arnold وميجناريوس Meginaruis (١) .

أما المسلمون في ذلك الوقت ، فقد قويت روحهم المعنوية ، ولذا قاموا بغارة سريعة خاطفة على أكويتانيا في عام ٧٨٥ م ، (٢) وسار عبد الرحمن الداخل نحو سرقسطة ، وقبل وصوله إليها كان ابن العربي قد قتل على يد الحسين بن يحيى الأنصارى الذى اعتقد أن ابن العربي متهم في دينه وولائه ؛ بعد أن رافق شارلمان في تفهقر ، ثم عاد ، وأعلن الحسين خضوعه وطاعته وولاه لهقصر قریش ، ولما خرج عليه بعد ذلك انتهى أمره بالقتل (٣) .

ومع انتصار عبد الرحمن الداخل ورجحان كفته ، رأى أن من حسن السياسة ، أن يقيم علاقات ودية مع شارلمان ، بعد أن عجم عوده وعرف قوته وإمكاناته ، فدعاه إلى عقد معاهدة عدم اعتداء ، حتى يأمن كل منهما جانب الآخر ، وزاد عبد الرحمن في تودده ، فطلب المصاهرة مع شارلمان تدعيماً للرابطة بينهما ، فلم يسع شارلمان ، وكان حصيفاً ، إلا أن

(١) Deanesly, pp. 352 - 3 ; Dozy I, pp. 380 .. 381

(٢) المراجع السابقة .

(٣) ابن عذارى ٢ ص ٨ ، Dozy, pp. 380 - 1

يستجيب إلى السلام مع صقر قریش . وأن يبعد عن نفسه ذلك الحلم
الإمبراطورى فى فتح أسبانيا ، وتمت المعاهدة والمسالمة ، ولكن المصاهرة
لم تتم (١) . يقول المقرئ مشيراً إلى هذه العلاقة الودية الجديدة :

« وخاطب عبد الرحمن قارله ، وكان من طغاة الأفرنج ، بعد أن تمرس
به ، فأصابه صلب المكسرتام الرجولية ، فقال معه إلى المداورة ، ودعاه إلى
المصاهرة والسلام ، فأجابه للسلام ولم تتم المصاهرة » (٢) .

توفى عبد الرحمن الداخل فى ربيع الآخر ١٧٢ هـ / أكتوبر ٧٨٨ م (٣) ،
وخلفه ابنه هشام (١٧٢ — ١٨٠ هـ / ٧٨٨ — ٧٩٦ م) . وكان هشام
بمارده Mérida ، يقوم بأمرها ، قبل أن يخلف أباه ، وقد اختار له أبوه
هذا العمل ، لىكى يتمرس فى ميادين الحرب والجهاد ، وأن يكون أبدأ
مستعداً لمواجهة المخاطر ، ونجح هشام خلال ولايته لهذه المنطقة الشمالية
فى تقليم أظفار الإمارات المسيحية : جليقية وليون ونافار ، إذ كان كثير
الغزوها (٤) .

(١) العبادى ص ٨٣ ، p. 160 ، Moh. & Charlene

(٢) نفح الطيب ص ١٥٥

(٣) عن مقدرة عبد الرحمن الداخل وصفاته وعلمه وشعره وعدله وحروبه وانتصاراته ،
انظر : أعمال الأعلام ص ١٠ — ١١ ؛ ابن عذارى ص ٢ ص ٨٦ — ٩٠ ، ابن الأثير

ص ٦ ص ٤٠ ، Lane — poole. ; Dozy I, pp. 297 sqq p. 66.

(٤) نفح الطيب ص ١٥٧ ، أخبار مجموعة ص ١٢٠ — ١٢٤ ، الروض المغطر

ص ١٧٥ — ١٧٧ ، العبادى ص ١٨٧

وتصفه المراجع ، بأنه شاب كفاء متحمس للدين (١) ، « وبمنزلة عمر ابن عبد العزيز في قومه بالأندلس ، (٢) أراد أن يشغل الأمة عن الفن الداخلية عن طريق الجهاد ، وهذا في نظره أجمع شيء للكلمة ، وهدفه كذلك استرجاع ماضع من البلاد على يد شارلمان وأبيه من قبل ، ولا سيما وأن الفرنجة احتلوا في الفترة ما بين ٧٨٥ ، ٧٩٠ م كثيراً من الأراضي الأسبانية الشمالية حتى وصلوا إلى نحو ٣٠٠ ميل في الأراضي الأسبانية (٣) وشجعه على الجهاد ، وصرف الأمة إليه ، أن القالة في عهده كثرت ، بأن المسلمين لا يقدرّون إلا على قتال بعضهم بعضاً ؛ بل أفنى الفقهاء بأنه لا يجب دفع الخراج لأمرأه لا يعرفون إلا أن يقاتلوا أمة محمد (ص) وحدها ، وضربوا الأمثال في خدمة الإسلام بخلفاء بغداد الذين لم يفتروا عن غزو القسطنطينة وقرع بلاد الروم (٤) .

أعلن هشام الجهاد وأمر الناس كافة أن ينفروا إلى الجهاد ، وأن تكون وجهتهم جبال البرانس ، ومن لم يقدر على الجهاد بنفسه ، وجب عليه الجهاد بماله ، وقرى منشور الأمير على منابر الجوامع ، فنفر الناس من كل فج ، وتجمع تحت إمرته نحو مائة ألف مقاتل .

(١) Deanesly, p. 353

(٢) ومن دلائل حزمه ودينه وعفله وعدله ، أنه لما بنى القنطرة العظمى بقرطبة ، وأفق فيها أموالاً طائلة ، عاق الناس : إنما بناها لتصيدته ونزهته . فلما بلغه ذلك ، أقسم ألا يجوز عليها إلا لغزو في سبيل الله أو مصالحة .

(٣) أعمال الأعلام ص ١٢ ، ابن عذاري ، ج ٢ ص ٩٨ — ٩٩ ، فتح الطيب ج ١ ص ١٥٧ — ١٥٨

(٤) Deanesly, p. 353 ، انظر ما يلي

(٥) العبادي ص ٨٧ — ٨٨

قسم القوة إلى قسمين : قسم بقيادته شخصياً توجه به إلى جليقية لمحاربة ثوارها فهزمهم وشتت شملهم^(١) ، أما القسم الآخر من الجيش ، فوجهه بقيادة وزيره عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث إلى فظالوينا ، ومنها استعد لاجتياح فرنسا ، وكان شرلمان في ذلك الوقت مشغولاً على ضفاف الدانوب في حربه ضد الأفار ، كما أن معظم جيش أكويتانيا ، كان مشغولاً مع ابنه لويس في إيطاليا .

دخل عبد الملك فرنسا عام ١٧٧ هـ / ٧٩٢ م ووصل إلى أربونة ، فأحرق ضواحيها وغنم منها ، وسار إلى قرقشونة ، فأنبرى إليه وليام دوق طولوشة (تولوز) وكان وليام ينوب عن لويس ملك أكويتانيا في رعاية مملكته ، استنفر وليام المسحيين ، فاستجاب له أمراء البلاد وأقبلوا عليه من كل جانب ، والتقوا بالمسلمين في منطقة فيلديني Villedaigne فيما بين قرقشونة وأربونة ، وذلك على ضفاف نهر أنبيو Onbieu ، وكانت المعركة حامية ، انتصر فيها المسلمون وأصيب الفرنجة بخسائر فادحة ، وأبدى وليام دوق تولوز شجاعة رفعته إلى مصاف الأبطال ، وجعلته في مرتبة رولاند ، حتى صار موضوعاً لأساطير العصور الوسطى^(٢) . ويقال إن عبد الملك أو غل في أرض الفرنجة ، حتى وطئ أرض بريطانيا (Brittany) وهزمهم^(٣) .

(١) ابن الأثير > ٦ من ٤٤ ، العبادي ص ٨٨

(٢) نفح الطيب > ١ من ١٥٨ ، ابن القوطية ص ٦٥ ، ابن الأثير > ٦ من ٤٨ ، ابن عذاري > ٢ من ٩٥ ، أعمال الأعلام ص ١١ - ١٢ ، Scott, I. p. 429

(٣) نفح الطيب > ١ من ١٥٨

اكتفى المسلمون بما أصابوا من مغنم ، ومن هذه المغنم ما أوقف
على مسجد قرطبة العظيم (١) . وانتقم الفرنجة وغزوا البرانس في غارة
سريعة عام ٧٩٦ م وغنموا وعادوا (٢) .

* * *

وبعد وفاة هشام عام ١٨٠ هـ / ٧٩٦ م ، تولى ابنه الحكم (١٨٠ -
٢٠٦ هـ / ٧٩٦ - ٨٢٢ م) ، ووقعت انقسامات في أول عهده ، بين مسلمي
الأندلس ونازعه عماء عبد الله وسليمان ، فضلا عن حكام المدن الشمالية
وأرسل بعض زعماء المسلمين الناقمين على الحكم إلى شارلمان ، وكذلك
إلى ابنه لويس ، يطالبون مساعدتهم ، ووقعت مفاوضات بين حزب الناقمين
وبين الفرنجة في إكس لاشابل Aix - La - Chapelle وفي هرستال
Heristal ، وذلك عام ١٨١ هـ / ٧٩٧ م (٣) .

وكذلك ثار بهلول بن مروان المعروف بأبي الحجاج في وشقة Huesca
واستولى على سرقسطة ، وبعث رسولا من قبله إلى طولوشة عاصمة أكويتانيا

(١) يقال إن خس الغنم ، وهو حق الأمير ، بلغ نحو ٤٤ ألف مثقال ذهب أكل به
هشام مسجد قرطبة ، وكان أبوه بدأه من قبل ولم يتمه ، علما بأن صقر قرش بنى هذا الجامع
من غنائم الحروب والجهاد ، ولذا زادت حرمة جامع قرطبة في نظر المسلمين ، وتذكر
المراجع أن عيد الرحمن الداخل وضع أساس الجامع على تراب جليله من جليقية ومن
جنوبي فرنسا أي من مسافة نحو ٢٠٠ مرحلة ، وقد حمل الأسرى المسيحيون هذا التراب
على ظهورهم ، نفخ الطيب ح ١ ص ١٥٨ ، ٢١٢ وما يليها ، ابن الأثير ح ٦ ص ٤٨٦
ابن القوطية ص ٦٥ ، غزوات العرب ص ١٢٧ - ١٢٨ (الروض المعمار ص

١٥٦ - ١٥٣ ، P.353 Deanesly

(٢) Deanesly p. 353

(٣) Ibid

يطلب التحالف مع لويس بن شارلمان ضد خصومه من المسلمين في أسبانيا
فقدم عليه عبد الله عم الحكم ، وكان متوجها إلى الفرنجة (١) . وبعد ذلك
بستين أى فى عام ١٨٣ هـ / ٧٩٩ م ، أعلن حكم وشقة وضع المدينة تحت
سيادة شارلمان ، غير أن الوعود الأخرى الغامضة التى بذلها الناقدون على
السيادة الأثرية فى الأندلس ، من ناحية الولاء والعون لملك الفرنجة ،
لم يثق بها شارلمان (٢) .

وبدا لشارلمان مصداق حدثه عندما جاءت جيوش الفرنجة ، منتهرة
فرصة انشغال الحكم بقتال عميه (٣) ، وضربت حصارها على مدينة
برشلونة ، وقد امتنع بها حاكمها زاتون ، كما تسميه المراجع الأجنبية ،
ولعل اسمه سعدون ، وقام حاكم برشلونة بما ينبغي عليه من الدفاع المستميت
ولما كان شارلمان ، مشغولا فى ذلك الوقت ، وهو عام ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م ،
بتتويجه إمبراطورا فى روما (٤) ، تولى ابنه لويس ووليام كونت تولوز ،
أمر حصار برشلونة ، بمساعدة مسيحي أسبانيا .

قسم الفرنجة قواتهم إلى ثلاثة أقسام ، أحدها لحصار المدينة ، والثانى
للمرابطة فى المناطق التى تندفق منها النجدات الإسلامية من قرطبة ،
والثالث بقيادة لويس بن شارلمان ، ويعتصم بأعلى جبال البرانس لشن
الهجمات الخاطفة على المسلمين . ولذلك تحمل أمير برشلونة وحده عبء

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ٥٧ ، ابن عذارى ج ٢ ص ١٠٣

(٢) Deanesly, P. 353

(٣) ابن عذارى ج ٢ ص ١٠٥ ، أعمال الأعلام ص ١٥ ، ابن الأثير ج ٦ ص ٥٣

(٤) انظر Boyce, PP. 44-50

الدفاع عنها ، ولم تتمكن الإمدادات الإسلامية من الوصول إليه ، أو كما يقول ابن الأثير . « وتأخرت عساكر المسلمين عنها » (١) ، وكان ألفونس (Alfons) ملك جليقية يساعد الفرنجة (٢) .

ولما لم تستطع حامية برشلونة وحدها مقاومة هذه القوات المتحالفة ، سقطت المدينة في يد الفرنجة عام ١٨٥ هـ / ٨٠١ م ، ودخلتها جيوشهم عنوة وغنموا منها الكثير من الأسلحة والاسلحة الدروع والخوذ والخيول ، وأرسل لويس جزءا من الغنائم إلى أبيه شارلمان (٣) .

والمعروف أن برشلونة ظلت بين المسلمين ما يقرب من قرن ، وذلك منذ فتحها المسلمون أول مرة عام ٩٥ هـ / ٧١٣ م زمن موسى بن نصير ، وسموها برشونة Barshinon ؛ ولكن غلب عليها اسم برسلونة (بالسين) ومنذ استيلاء الفرنجة عليها ٧ م ١٨٥ م هـ / ٨٠١ م ، ظلت تحت حكمهم ، حتى استقل أمراؤها عام ٨٨٨ م عندما ضعفت سلالة شارلمان ، وانفلتت السلطة من أيديهم (٤) .

(١) ابن الأثير . الكامل ج ٦ ص ٥٣ — ٥٤

(٢) كان ألفونسو الثاني قد استنجد بشارلمان أكثر من مرة ضد المسلمين في أسبانيا ، وفي البعثة الثالثة التي أرسلها إلى ملك الفرنجة ، وهو في هرستال ٧ م ٧٩٨ م ، بعث معها هدايا من بينها بعض الأسرى المسلمة والأسلحة والبغال وكان غنمها من المسلمين في لشبونة (Deansly P. 354)

(٣) تقيع الطيب ج ١ ص ١٥٩ ، ابن الأثير ج ٦ ص ٥٣ — ٥٤ ، ٦٠ ، أخبار مجموعة ص ١٢٤ وما بعدها ، ابن عذاري ج ٢ ص ١٠٣ — ١٠٥ ، غزوات العرب ص ١٣٠ — ١٣٢ ، Lévi-Provençal T. I PP. 173—80; Deanesly, p. 354; De Marles. P. 269 Lane — Poole P. 74 .

(٤) الحبل الهندسية ج ٢ ص ٢١٦ — ٢١٧

وباستيلاء الفرنجة على برشلونة عاصمة إقليم قطلونيا ، زادت مساحة المارك الأسباني، Spanish March أو المقاطعة الأسبانية أو النبد الأسباني Limes Hispanicus ، إلى النصف . وكان الفرنجة ، عندما اتسعت أملاكهم في أسبانيا تدريجيا ، فما وراء البرانس خلال الفترة التي تبدأ من عام ٧٨٥ م ، كونوا من هذه الممتلكات نبدا أو مقاطعة سموه المارك الأسباني ، بحسب تنظيماتهم الإدارية عند مناطق الخطر في الأطراف ، وذلك عام ٧٩٥ م بفضل جهود لويس بن شارلمان ، وأقام لويس في هذه المنطقة بعض الحصون وشحنها بالمقاتلة ، تحت إشراف اثنين من الأكناد Caunts هما : بوريل Barrel وروستينج Rostaing ، واستعان لويس بالمسحيين اللاجئين وبعض المسلمين الفارين والخارجين على سلطان الدولة الإسلامية بالأندلس ، وكون منهم فرقة لحراسة المنطقة الأسبانية ، وبذلك تمكن الفرنجة من تدعيم سيادتهم في هذه البقعة الأسبانية ، حتى اقتربت أملاكهم من أملاك مملكة جليقة المسيحية ، وملكها المعاصر زمن شارلمان وابنه لويس هو ألفونسو الثاني (الأذفونش) . وعند نهاية حكم شارلمان ضم المارك الأسباني إلى مملكة أكويتانيا ، كما ضم مارك تولوز . ولما كان وليام أمير تولوز قد ساهم بنصيب موفور في فتح برشلونة ، فقد جعلت له السيادة العليا على صغار الحكام الذين شاركوه في حكومة هذه المناطق . ومات وليام كونت تولوز في عام ٨١٢ م ، وصارت أعماله العظيمة يتغنى بها .

أضحى المارك الأسباني ، يعرف فيما بعد باسم إقليم قطلونيا Catalenia كما أضحى قاعدة مسيحية في الركن الشمالى الشرقى لأسبانيا الإسلامية ، ونواة حية نمت حولها قوة المقاومة المسيحية خلال الحروب المستمرة

والمقطعة ، وهي التي شنها المسيحيون وحلفاؤهم في أسبانيا لإعادة فتح البلاد ، وهي الحركة التي عرفت بحركة الاسترداد المسيحي Christian Reconquista (١) .

وقد وصف الحميري . برشلونة في زمنه (القرن التاسع الهجري والخامس عشر الميلادي) بقوله :

« برشلونة مدينة للروم ، بينها وبين طركونه (Tarragna) خمسون ميلا . . . وبرشلونة على البحر . . . ويسكن برشلونة ملك إفرنجة ، وهي دار ملكهم ، وله سراكب تسافر وتغزو ، والأفرنج شوكة لا تطاق . . . وبرشلونة كثيرة الخنطة والحجوب والعسل ، واليهود بها يعدلون النصارى كثرة . . . وصاحب برشلونة اليوم راي مند (Ray mond) ابن بلنكير : (Fils de Belengeur) بن بريل (Fils de Barrel) ، (٢)

تكررت غزوات الفرنجة على أسبانيا الإسلامية في الفترة ما بين ٨٠٩م ، وذلك بعد أن أصبحت لهم تلك القاعدة فيما وراء البرانس ، ولكنهم استولوا على مملكة نافار المسيحية ، انتقاما من موقفها السابق من حملة شارلمان

(١) حقيقة احتل المسلمون برشلونة بعد ذلك أكثر من مرة ، لكن سيادتهم عليها لم تثبت ، فقد أعيد سيطر عليها عام ٢٤٢ هـ / ٨٥٦ م ، ثم استولى المنصور بن أبي عامر عليها عام ٣٧٥ هـ / ٩٨٥ م ، وفي عام ٩٨٧ م استولى عليها كونت بوريل ، وفي عام ١١٣٧ م انضمت إلى مملكة أرغونة (انظر الحال السندسية ج ٢ ص ٢١٢ ،

Lévi-Provençal I pp. 180-181 ; Deanesly p. 354 ;

وكرثة رونسفال عام ٧٧٨ م ، غير أن الحكومة التي أقامها لويس بن شارلمان في بنلونة ، عاصمة نافار ، كانت ضعيفة ، وفشل لويس في بسط سلطانه على وشقة ، التي كان حاكمها من قبل قد وضعها تحت سيادة شارلمان ومع ذلك نجح الفرنجة في الاستيلاء على جزء البليار (١) .

الخلاصة : صار للفرنجة في أسبانيا مقاطعتان كبيرتان هما : قطالونيا وغشقونيا Gascony ، بجانب جزر البليار .

على أن علاقات الود التي قامت بين بني العباس وبين الفرنجة الكارولنجيين ، وتبادل السفارات بينهم منذ انتزاع عبد الرحمن الداخل أسبانيا من سلطة العباسيين ، وتلك التي قامت بين أموى الأندلس وبين الإمبراطورية البيزنطية ، كرد على تلك العلاقات العباسية الكارولنجية ، أدى ذلك إلى مبالغة مؤرخي الفرنجة حتى زعموا لشارلمان حماية على الأراضي المقدسة ، منحها إياه الرشيد .

والذى لا شك فيه أن بين العباسيين والكارولنجيين علاقات ودية ، إذ اقتضت مصالح العباسيين مسالمة الفرنجة ، على بعدهم ، ولكن لقربهم من أسبانيا التي اقتطعها الأمويون من أملاك الخلافة العباسية ، وكذلك لسبب العداء التقليدى بين البيزنطيين والمسلمين ، ورغبة الخليفة العباسى فى تقوية جبهة ضدهم وذلك بمحاربة الفرنجة منافس البيزنطيين والذين يخالفونهم فى المذهب الدينى فضلا عن الرغبة فى القضاء

على نفوذ البيزنطيين المعنوي بين مسلمي الشام والجزيرة. أما مصالحة الفرنجة في محالفة العباسيين فتتلخص أولاً في تحقيق الحلم الإمبراطوري لشارلمان بمد نفوذه على أسبانيا ، والتذرع بأنه يعمل حليفاً للعباسيين ليكون له حق شرعي في التدخل في أسبانيا، ثم إذا كان قد فشل في هذا التدخل عام ٧٧٨ م، حيث تعرض لكارثة ورنسفال (١) فإنه أراد أن ينتقم لما أصابه في ذلك العام ؛ ثم هو بعد ذلك حليف للكنيسة والبابوية ، والفرنجة دائماً يعتبرون أنفسهم خدام العقيدة المسيحية والعاملين على نشرها وتقويتها ، سواء كانوا تحت حكومة المير وفنيجيين أم حكومة الكارولنجيليين فهم يريدون تقوية الجبهة المسيحية في أسبانيا ضد المسلمين وتسهيل طرق الحج إلى الأراضي المقدسة في المشرق ، وحرصت البابوية حليفة الفرنجة ، منذ خطر اللومبارد في القرن ٦ م وتقاعد بيزنطة عن حمايتها ، على أن تقوى صلتها ببطاركة المشرق في الأسكندرية وأنطاكية ليقفوا بجانبها في صراعها مع بطريرك القسطنطينية على الزعامة الروحية في العالم المسيحي .

لهذه الأهداف ، جرى تبادل السفارات بين بلاط العباسيين وبلاط الفرنجة ، فأرسل شارلمان سفارة في عام ٧٩٧ م إلى الرشيد لعقد حلف مع العباسيين ضد الأمويين بالأندلس وضد البيزنطيين ، والعمل على تسهيل طرق الحج ، واجتازت البعثة القدس ودرست أحوال المسيحيين به ؛ رحب الرشيد بهذه البعثة ووعد بتنفيذ مطالب شارلمان ، ورد السفارة في عام ٨٠١ م ، وأخرى عام ٨١٠ م

وترتب على حسن التفاهم أن شجع الخليفة هارون الرشيد ، إمبراطور

(١) راجع ما سبق

الفرنجة على تقديم بعض هدايا للقدس وإقامة بعض المؤسسات الخيرية في القدس مثل : المكتبة والمستشفى والأوقاف التي أوقفها عليهما ؛ وشعر المسيحيون الأرثوذكس بالقدس بقوة شارلمان الكاثوليكي وأهمية الاستناد إليه فبعثوا له برهوز تشريفية تقديراً منهم له .

على أن الروايات الغربية بالغت في تقدير ما ترتب على هذه العلاقات من نتائج إذ زعمت أن الرشيد منح شارلمان حق حماية الأماكن المقدسة ، وأن شارلمان يتمتع بهذه الحماية ، وأنه قام نفسه بالحج إلى الأراضي المقدسة ثم زعمت هذه الأساطير كذلك أن شارلمان ، بمقتضى هذا الحق ، يعتبر أول صليبي ؛ وأرجع بعض الكتاب المحدثين بعض أصول حرب القرم التي نشبت في القرن التاسع عشر إلى ذلك النزاع الذي شجر بين رهبان الكنديستين الأرثوذكسية والكاثوليكية ، في أيهما أحق بحراسة بعض الأماكن المقدسة المسيحية ببيت المقدس ، وهذا النزاع استمد أصوله من هذه الحماية الأسطورية التي أذاعها الفرنجة ؛ وإلى هذه الأسطورة استند الفرنجة المتأخرون في ادعاء حقوق تاريخية لهم على الشام .

تلك هي خلاصة ما ورد بصدد الحماية الفرنجية على الأماكن المقدسة ولاشك أن اينهارد في سيرة شارلمان لم يرد إلا تفخيم أمر سيده شارلمان كما أن كتابات سانت جال St. Gall أسطورية لا يعتمد عليها ، فضلاً عن عدم دقة الحوليات الملكية في تسجيل الأحداث ، بدليل أنها لم تذكر شيئاً عن كارثة رونسفال ؛ ثم إن الرشيد كان منتصباً على البيزنطيين ، ولا يوجد دليل على أن مسيحي الشام والجزيرة كانوا خطراً يذكر على

سلامة الدولة الإسلامية في ذلك الوقت ؛ هذا وقد تخلى العباسيون عن فكرة استرجاع الأندلس منذ عهد المنصور الذي أدرك استحالة هذا الأمر .

ومن ثم ، فنظرية الحماية على الأراضي المقدسة ، وهم أسطوري ، تناقله الكتاب جيلا بعد جيل ، حتى غدا كالحقيقة التاريخية ، ولكن أسطورية هذه الحماية ، لا تنفي وجود علاقات ودية بين بني العباس والفرنجة كما لا تنفي قيام شارلمان ببعض الأعمال الخيرية في القدس وتطلع مسيحي القدس إليه ، أما مسألة إهداء مفاتيح قبر المسيح من قبل بطريرك القدس إلى شارلمان ، فلا أهمية سياسية لها ، وهي لا تعدو أن تكون رمز تشریف وتبريك (١) .

...

(١) راجع في موضوع الحماية الفرنجية على الأماكن المقدسة وما تفرع عنها ، والعلاقات العباسية السكاروانجية :

— الدكتور عبد العزيز الدوري : العصر العباسي الأول ص ١٤٩ . ١٥٦ ، فقد أورد مناقشة علمية دقيقة في هذه المسألة .

الدكتور حسين مؤنس : المسلمون في حوض البحر الأبيض (المجلة التاريخية م ٤ سنة ١٩٥١ ص ١٥٥ - ١٦٤) ، اعتمد على ما كتبه الدوري .

— ديفيز : شارلمان (ترجمة الباز) — الملاحق ص ٣٠١ - ٣٠٤

— فشر : غزوات العرب في العصر الحديث (ترجمة هاشم والضبع) ص ٢١٧ - ٢٢٧ ؛

— أرسلان : غزوات العرب ص ١٣٢ - ١٣٣ .

Runciman, S., A History of the Crusades, Vol. I, pp. 28 - 29; Charlemagne & Palestine (In English Historical Review, Vol. I, pp. 606 sqq. ; Pirenne, H, Mohammad & Charlemagne, pp 160 —167 ; Deanesly, of Cit, P. 852; Joranson The Alleged Frankish Protectorate in Palestine)

(A. H. R. 1927 pp. 241 — 6 ; Eginhard Vie be Cherlem agne

(ed. Halphen Paris 1947) ; Buckler F. W. Harun I'Rashid & Charles the Great, PP. 4-29.

أما عن علاقة الأمويين في الأندلس بالبيزنطيين والتي تعتبر رداً على العلاقات العباسية الفرنجية ، فقد وضحت زمن عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ / ٨٢١ - ٨٥٢ م) ، وعاصره من أباطرة بيزنطة ثلاثة هم : ميخائيل الثانى من الأسرة العمودية ، وهو المعروف بالألكن أو التمام : M. the Stammerer (٨٢٠ - ٨٢٩ م) وثيوفلس Theophilus (٨٢٩ - ٨٤٢ م) وميخائيل الثالث ، المنعوت بالسكير (١) (٨٤٢ - ٨٦٧ م) ؛ والمعاصرون للأوسط من خلفاء بني العباس أربعة هم : المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ / ٨١٣ - ٨٣٣ م) والمعتصم (٢١٨ - ٢٢٧ هـ / ٨٤٢ - ٨٤٧ م) والواثق (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ / ٨٤٢ - ٨٤٧ م) والمتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ / ٨٤٧ - ٨٦١ م) .

أرسل ثيوفلس ، وتذكره المراجع العربية باسم ترفيل أوتيوفيل أوتوفلس ، سفارة إلى عبد الرحمن الأوسط عام ٢٢٥ هـ / ٨٣٩ - ٨٤٠ م ، ورسوله هو قراطىوس Kartiyus ترجمان البلاط البيزنطى ، وحمل الرسول الرومى هدية إلى عبد الرحمن الأوسط ، ولخص المقرئ هدف وسبب هذه السفارة فى أن توفلس « يطلب مواصلته - أى مواصلة عبد الرحمن ويرغبه فى ملك سليفه بالمشرق ، من أجل ما ضيق به المأمون والمعتصم ، حتى أنه ذكرهما له فى كتابه له ، وعبر عنها بابنى مراحل ومارده - أمتان للرشيد الأولى فارسية أنجبت له المأمون والثانية تركية وهى أم المعتصم ، (٢)

(١) انظر ما بلى .

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ١٦٢

كذلك طلب تيوفلس في رسالة أن يعمل الأوسط على استخلاص جزيرة كريت التي استولى عليها الأنداسيون ، على أثر وقعة الربض (١) ، ويردها إلى الروم ثانية (٢) . وفي نفس الوقت أرسل توفيل وفدين ، أحدهما إلى بلاط لويس بن شارلمان في إنجلهم Engelheim (يونيو ٨٣٩ م) والآخر إلى بلاط البندقية (٨٤٠ م) ، وذلك للتحالف معها ضد مسلمي أفريقية وصقلية ، الذين هددوا الأملاك البيزنطية في إيطاليا. (٣) .

وكان تيوفلس مدفوعا بسبب الخطر المحدق به من جانب العباسيين ، إذ حدث في عام ٨٣٧ م أن استولى تيوفلس على حصن زبطرة ، فأجابه المعتصم بالاستيلاء على عمورية ، مسقط رأس الأسرة الإمبراطورية ، وذلك في العام التالي (٤) .

استقبل عبد الرحمن الأوسط سفير تيوفلس مرحباً ، وقد سر بهدايا

(١) انظر ما يلي

(٢) ليفي برونسفال : الإسلام في المغرب والأندلس (ترجمة سالم) ص ٩٧ - ٩٨ ؛

مؤنس : المسلمون في حوض البحر الأبيض ص ١٦٥

(٣) المعروف أن بيزنطة اعترفت بامبراطورية شارلمان زمن الإمبراطور نقفور الأول

Nicephorus (٨٠٢ - ٨١١ م) ، وتدعم الاعتراف زمن ميخائيل الأول ، بدليل

ما ورد في رسالة شارلمان إلى ميخائيل الأول (٨١١ - ٨١٣ م) من رغبة في عقد هدنة أو تحالف بين الإمبراطوريتين الشرقية والغربية :

" inter Orientale et Occidentale Imperium "

(انظر Bryce, pp. 61 , 2 ؛ ليفي ص ٩٨ - ١٠٠ ؛ Lévi Prov, op.

Op cit T. I, pp, 250 - I)

(٤) ابن الأثير ج ٦ ص ١٧٦ - ١٨٠

بزنطة، وأجابه ببعثة - عضواها: الشاعر (الجبالي، والفيلسوف السياسي) والمنجم يحيى بن الحكم الملقب بالغزال لجماله والعضو الثاني يسمى يحيى أيضا، وهو منجم كذلك، وينسب إليه اختراع نوع من الساعات، حتى عرف باسم «صاحب المنبقة»، (١). خرجا السفيران القرطبيان من ميناء مرسية في تدمير ووصلا القسطنطينية بعد رحلة شاقة طويلة، في شتاء سنة ٨٣٩ / ٨٤٠ م. واحتفل الإمبراطور بمقدم الرسولين، ومعهما رسالة مطولة من عبد الرحمن الأوسط، لا تظهر فيها مجاملات دبلوماسية، ولكنه أجاب فيها على كتاب ثيوفلس، فقرة فقرة، ولم يتقيد بشيء (٢)، على أن تفاهما تم بين بلاطى قرطبة والقسطنطينية، لكن لم تبرم معاهدة أو محالفة، لأن عبد الرحمن الأوسط لم ير أن يتورط في محالفة دولة بعيدة كل البعد، ولذا أثر التفاهم والود على التحالف الرسمي، مما يدل على بعد نظر أمير قرطبة (٣).

واقترن اسم يحيى الغزال ببعض الحوادث التي وقعت له في أثناء مقامة بالقسطنطينية، منها إعجاب الإمبراطورة ثيودورا، المعروفة في الكتب العربية باسم تود، وحديثه معها بحضرة الإمبراطور، وزيارة الإمبراطورة له بصحبة ابنها ميخائيل، في القصر الذى خصص لسكنى

(١) ليني ص ١٠٠ - ١٠١

(٢) انظر نص رسالة أمير قرطبة في الملاحق فيما يلى :

(٣) العبادى ص ١٠٦ - ١٠٧ ؛ مؤنس : المسلمون فى حوض البحر الأبيض ص ١٦٤ ..

١٦٧ ؛ 9 - Scott I, pp 478

ليني بروفنسال (ترجمة سالم) ص ١٠١ - ١٠٥ ؛ Lévi — Prov, T. I.P, 253

الوفد الأندلسي بالقسطنطينية ، وخلد الغزال هذه الزيارة في قصيدته رائعة (١) .

وتجددت محاولات أباطرة بيزنطة للتحالف مع بني أمية بالأندلس زمن عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ / ٩١٢ — ٩٦١ م) ، فقد أوفد الإمبراطور قسطنطين السابع الملقب بالأرجواني Parphyrogenitus (٢) (٩١٣ — ٩٥٩ م) سفارة إلى قرطبة في عام ٣٣٦ هـ / ٩٤٧ م ، تحمل هدية فاخرة ورسالة إلى الناصر ، راغباً منه في إيقاع المؤالفة ، — كما يقول ابن الخطيب (٣) — إذ كان إمبراطور بيزنطة يخشى نوايا الفاطميين ، واستقبل الناصر رسل الروم في موكب حافل (٤) ، ألقى فيه خطبة ظهر فيها عظيم سلطانه وتصف مآتهياً من توطيد الخلافة في دولة (٥) ، وأجاب الناصر على رسالة الإمبراطور وهداياهم وبعث بسفير من قبله هو هشام بن هذيل يحمل هدية ورسالة ، مؤكداً أحسن المودة ، وعاد هذا السفير من القسطنطينية بعد سنتين (٦) . وفي صحبته رسل الإمبراطور . وهشام بن

(١) نفح الطيب > ١ ص ٤٤١ — ٤٤٥ ؛ ليفي بروفسال (ترجمة سالم) ص ١٠٧ — ١١١ ؛ انظر القصيدة في الملاحق فيما يلي .

(٢) سمي كذلك لأنه ولد في الغرفة الأرجوانية ، وهي الغرفة المخصصة للإمبراطورة في القصر الإمبراطوري .

(٣) أعمال الأعلام ص ٣٧ ، انظر كذلك ابن عذاري > ٢ ص ٣١٩

(٤) انظر وصف الاستقبال في الملاحق .

(٥) نفح الطيب > ١ ص ١٧٢ — انظر نص الخطبة في الملاحق

(٦) نفح الطيب > ١ ص ١٧٠

هذيل من قسوس مستعربي الأندلس ، وهو الذى تسمية المراجع العربية .
« الجاثليق » ، Catholicus (١) .

وطلب الناصر من القسطنطينية الفسيفساء والتحف على يد كبير
مستعربي الأندلس وهو الأسقف ربيع بن زيد ، فعاد بالتحف ومر
بالقدس واستصحب معه فى عودته عددا من صنائع الفسيفساء اتركيبها ،
كذلك أحضر ربيع الأسقف حوضا منقوشا بالذهب (٢) .

وفى زمن الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ / ٩٦١ - ٩٧٦ م) ورد
من بلاد الروم إلى قرطبة نفر من مهرة الصنائع ، ومنهم تعلم الأندلسيون
هذه الفنون ، ولهذا أثره البعيد فى تطور الفن الأندلسى (٣) .

لم تحل هذه العلاقات دون تجدد غارات العرب على فرنسا كما لم يحل
دون ذلك طرد المسلمين من سبتمانيا (جوثيا) وأربونة منذ عام ٧٥٩ م ،
واستيلاء الفرنجة على برشلونة الأسبانية الإسلامية عام ٨٠١ م .

تكررت غزوات المسلمين فى جنوبى فرنسا ، وهوجمت مرسليليا
أكثر من مرة : فى عام ٨٣٨ م ، ٨٤٢ ، ٨٤٦ ، ٨٤٨ ، ووصل المسلمون

(١) مؤنس : المسلمون فى حوض البحر الأبيض من ١٦٥ - ١٦٦

(٢) المسلمون فى حوض البحر الأبيض من ١٦٦ ؛ أعمال الأعلام من ٣٨

(٣) أعمال الأعلام من ٤٢ ؛ المسلمون فى حوض البحر الأبيض من ١٦٦

إلى مصب الرون قرب أرل ، وغنموا وعادوا (١) ، بل إن غزواتهم امتدت على طول ساحل فرنسا الجنوبية شرقا حتى وصلوا إلى جنوه الإيطالية .

وحدث خلال الصراع الداخلي في فرنسا زمن شارل الأصلع (ت ٨٧٧ م) أن استعان بعض الخصوم بالمسلمين ، فأمدهم بجنود ، أجبرت شارل الأصلع على طلب الصلح (٢) . ورغم الاضطرابات التي ملأت أسبانيا الإسلامية في ذلك الوقت ، وهو النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي (٣) ، فإن المسلمين لم يكفوا عن قرع أبواب فرنسا ، فزلوا في عام ٢٨٣ هـ / ٨٦٩ م في بروفانس ، في مكان يقال له كامراج Camrague وحاولوا الاستقرار في بروفانس (٤) .

كانت أحوال الإمبراطورية الكارولنجية ملائمة كل الملاءمة لاستقرار المسلمين في جنوب فرنسا ، فقد حدث بعد وفاة شارل الأصلع بسنتين ، أن قام بوزو Boso دوق بروفانس ، وأعلن نفسه ملكا مستقلا في أكويتانيا بمساعدة رجال الدين والنبلاء المحليين . كان ذلك في أكتوبر من عام ٨٧٩ م .

(١) المسلمون في حوض البحر الأبيض ص ١٢٩ .

(٢) أرسلان ص ١٥٥ - ١٥٨ (عن دوت بوك Don Boquet الراهب البكني والمؤرخ ، المتوفى عام ١٧٥٤ م)

(٣) راجع : العبادي ص ١١٧ - ١٢٢ ؛ أعمال الأعلام ص ٢٠ - ٢٨ ؛ نفح الطيب ص ١٦٣ - ١٦٥ ، أخبار مجموعة ص ١٤١ ، ١٥٧ - ١٥٨ ، ١٧١ - ١٧٣ ، ١٧٦ - ١٧٨

(٤) المسلمون في حوض البحر الأبيض ص ١٢٩ - ١٣٠ ؛ أرسلان ص ١٥٨ -

وشملت مملكة بوزو حوض الرون من آرل إلى ليون Lyons . كذلك ثار هيو Hugh أحد مقدمى الأديرة . ورغم أن شارل السمين ، إمبراطور الفرنجة وحفيد شارلمان ، تمكن من قمع حركة بوزو وهزيمته فى عام ٨٨٢ م والاستيلاء على معظم أملاكه ، حتى صار محصوراً فى منطقة ضيقة تحيط بمدينة فين Vienne (١) ، إلا أن لويس بن بوزو ، نجح بعد وفاة شارل السمين فى ١٣ يناير ٨٨٨ م ، فى استعادة أملاك أبيه ، وإعلان استقلاله بإقليم بروفانس .

وفى نفس الوقت ، انتهز أود Eudes كونت باريس ، وفاة شارل السمين واضطراب الأحوال ، وأعلن نفسه ملكاً على فرنسا الغربية ، وأخذ لقب «ملك فرنسا الغربية» ، Rex Francia Occidentalis .

وأود هذا ، كان قد اشتهر بشجاعة فى الدفاع عن باريس أمام غزو النورمان لها . فكافأه شارل السمين بجعله دوقاً لباريس وماحولها (٢) .

خلال هذه الأحداث والاضطرابات الناجمة عن الثورات الداخلية ، والغزو النورمانى ، أخذ المسلمون يستقرون فى بعض جهات بروفانس ، ويتخذونها قاعدة لهم من جديد ، وذلك بعد أن فقدوا مراكزهم الأولى

(١) Deanesly. op. Cit., PP. 460—461

(٢) أود هو ابن روبرت المعروف بالقوى Robert the Strong جد آل كابى Capels الذين انتزعوا العرش من السكارولنجيين فيما بعد وأسسوا أسرة مالكة فى فرنسا

(انظر ما يلى وراجع : Dutailis, P., The Feu dal Monarchy in France & England, PP. sqq.; Deanesly, PP. 463-4; Brooke AHistory of Europe, P.8.)

في إقليم سبتانيا . وفي الفترة بين عامي ٨٨٩ ، ٨٩٤ م ، دخل غزاة جدد من المسلمين ، جاؤا من أسبانيا الإسلامية وتوغلوا في المنطقة الجبلية المليئة بالغابات والمطلة على خليج سان تروبي St. Tropez جنوبي فرنسا وظلوا في تقدمهم حتى وصلوا إلى قمة جبل يشرف على جزء كبير من بروفانس . وقد نسب هذا الجبل إلى المسلمين فيما بعد فعرف باسم « جبل المسلمين أو سلسلة جبال المسلمين » : Chaines des Mauoes .

أدرك المسلمون أهمية هذه المنطقة الحصينة ، فأنبحر مفتوح أمامهم للإمدادات الخارجية ، كما أن البر من الداخل مهماً للغارات الداخلية ، وبجانبيهم الغابات الكثيفة للاتجاء إليها عند الحاجة . أخذوا يقيمون المعقل في هذه المنطقة ، وتوالت عليهم الإمدادات من أسبانيا وشمال أفريقيا . وأهم هذه الحصون التي بناها العرب حصن فراكسنيثوم Fraxinetum ، وموضعه الحالي هو المكان المعروف باسم : لاجارد فريني La Garde - Frainet ، ويقع بين هير Hyères وفريجوس Fréjus (١)

أما تسميته بهذا الاسم ، فاختلفت حوله الأقوال ، ويحتمل أنه كانت توجد قرية رومانية قديمة بهذا الاسم ، في هذا المكان ، احتلها العرب وأزالوها ، واختاروا قمة الجبل لإنشاء هذا الحصن وأطلقوا عليه اسم القرية (٢) ، وربما كان أصل التسمية مشتقاً من شجر البلوط Fraxinus

(١) المسلمون في حوض البحر الأبيض من ١٣٠ ، أرسلان من ١٦٠ ، ١٦١ ، ٢٨١ ، كليلا (Clelia) : مجاهد العارمى من ١٨٤ — ١٨٥ ، Pirenne, Mohamud & Charlemagne, pp. 156, 249 .

(٢) غزوات العرب من ١٦٢ — ١٦٦ .

الذى يكثر في هذه المنطقة . والمعنى المجازى لهذا الاسم : حربة أو رمح ذو عمود أو مقبض مصنوع من خشب البلوط ، وقد يرجع هذا التفسير الأخير ، بدليل أن هذه التسمية أطلقت على مواضع أخرى في هذه المنطقة ومايتاخما : في دوفيني Dauphiné وسافوى Savoie وبيد مونت .

أورد المؤرخ بيرين Birienne نصاً مؤداه ، أنه في أغسطس من عام ٨٩٠ م أو حوالى ٨٩٠ م ، استقر بعض مسلمي أسبانيا في منطقة بروفانس وأسسوا حصناً قوياً في فراكسيليتوم (١) .

أضحت فراكسيليتوم عاصمة المماليك الإسلامية في هذه المنطقة ، وكانت مشمولة برعاية خلفاء قرطبة والملاحوظ أن الخليفة الأدي المعاصر لتأسيس هذه القاعدة هو الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ / ٨٨٨ - ٩١٢ م) . وقد تمكن المسلمون بفضل مناعة هذا المعقل ، أن يتحكموا في بروفانس ودوفيني ، ومنه بعثوا بغاراتهم على البلاد المجاورة ، فتوغلوا في منطقة مرسيليا ، وصعدوا على نهر الرون ، ونشروا الفزع والرعب في مقاطعتي فالنتان وفين Valentins et Vienns ووصلوا إلى مدينة إكس Aix (٢) .

ومن هذه المنطقة ، امتد سلطان المسلمين إلى مدينة Nice ، وتبع ملكة آرل ، وسكنها كثير من المسلمين ، وكان لهم بها حي خاص نسب

(١) انظر الخريطة وراجع : Pirenne, op. Cit. P. 249

(٢) المسلمون في حوض البحر الأبيض من ١٣٠ : غزوات العرب من ١٧٠

إليهم Canton des Ses Sarrazins . كذلك احتل المسلمون مدينة جرنوبل Grenoble وليس من المعروف بدقة ، تاريخ دخولهم فيها ، وقد عثر على كتابة منقوشة على حجر ، تدل على وجود المسلمين في جرنوبل ، ويرجع تاريخ هذه الكتابة إلى عام ٩٥٤ م (١) ، أى زمن عبد الرحمن الناصر الأموي في الأندلس (ت ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م) .

امتدت غزوات المسلمين إلى سافوى . وهناك أسماء عربية كثيرة ، عثر عليها في سافوى ، مما يدل على إقامة المسلمين بهذا الإقليم . من ذلك وادى السرازيرة أى وادى المسلمين Vallée des Sarrazise قرب مودان Modane (٢) .

ولا شك أن تحكم العرب في قلعة فراكسنيثوم بجنوب فرنسا ، كان عاملاً أساسياً في استمرار الغزو الإسلامى لهذا الإقليم وما وراء الألب (٣) ولذلك نجد أن هذه الغارات قلت عندما فقد هذا الحصن حوالى عام ٩٧٥ م وربما انقطعت . ومع ذلك ، حاول المسلمون استئناف الغزو والفتح في جنوب فرنسا ، في مطلع القرن الحادى عشر الميلادى ، غير أن هذه الغزوات الأخيرة لم تأخذ صفة الدرام ، لتغير الأحوال في أوروبا المسيحية وفي أسبانيا الإسلامية بصفة خاصة (٤) .

(١) غزوات العرب ص ١٧٤

(٢) غزوات ص ١٧٥ — ١٧٦

(٣) انظر ما يلى

(٤) انظر ما يلى

وقعت هذه الغزوات الأخيرة زمن سيادة آل كابيه Capets (١) بفرنسا
وبرئاسة مجاهد مسلم مغامر هو أبو الحسين مجاهد بن عبد الله العامري
الصقلبي المسيحي الأصل (ت ٤٣٦ هـ / ١٠٤٥). وقد أشارت إليه الكتب
الأجنبية المعاصرة باسم Mwujet أو Musectus ؛ وكان مجرد ذكر اسمه ،
يلقى الرعب في قلوب المسيحيين . اتخذ مجاهد من قاعدته دانية Denia
بشرقي الأندلس ، مركزا للوثوب على جزر البحر الأبيض الغربي ،
وسواحل فرنسا الجنوبية وسواحل إيطاليا (١) .

وخلال النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي ، تعرضت
سواحل فرنسا لغزوات المسلمين ، فغزيت عين الطيب عام ١٠٠٣ م ، وفي
عام ١٠١٩ م ، هاجم المسلمون مدينة أربونة Narbonne ، ولكنهم ردوا

(١) جدآل كابيه الأعلى هو روبرت القوي ، كونت باريس الإقطاعي ، وقد برزت
شجاعة روبرت وابنه أودو Odo في رد غارات النورمان عن باريس ، على حين فشل ملوك
فرنسا الكارولنجيون . أمثال شارل الأصم وشارل السمين ، وكان ذلك في خواتيم القرن التاسع
الميلادي ومن هذه الأسرة من أخذ لقب ملك ، مع وجود الملك الكارولنجي ، حتى إذا
كانت نهاية عهد لويس الخامس الكارولنجي المتوفى عام ٩٨٧ م ، اجتمع سادة فرنسا
الإقطاعيون مع رجال الدين ، وانتخبوا هيو كابى Hugh Capet ملكا على فرنسا
في ذلك العام ، فتأسست بذلك أسرة مالكة جديدة هي أسرة آل كابى ، ونسبت إلى هيو
هذا ، وبدأ بهذا تاريخ الملكية الإقطاعية في فرنسا ، واستمرت نحو ثلاثة قرون (راجع :
Dutaillis, Pp. 7-11, Brooke, PP. 8, 101-120 ; Masson, Mediaeval France, PP.
pp. 1-21). ٦.١١

(٢) كان مجاهد العامري من موالى المنصور بن أبي عامر ، وولاه حكم مدينة دانية ،
فاستقل بها بعد وفاة ابن أبي عامر ووسع مملكته ونفوذته في البحر ، وقصة حياته وازدهار
بلاطه من أساطير البطولة والعظمة (راجع : ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٤ ؛ صبح الأعشى
ج ٥ ص ٢٥٦ - ٢٥٧ ؛ الروض المعطار ص ٧٦ ؛ ابن الخطيب ص ٢١٧ - ٢١٩ ،
معجم الأدباء ج ١٧ ص ٨٠ ؛ المسلمون في حوض البحر الأبيض ص ١١٦ ؛ غزوات العرب
ص ٢٠٢ - ٢٠٤ ، كليليا ص ٢١١ - ٢١٤)

عنها ، كذلك هاجم المسلمون جزر لاران Larin أمام سواحل فرنسا الجنوبية ، ونزل بها فريق منهم عام ١٠٤٧ م . وكلها غزوات سريعة . هدفها الحصول على المغنم ، إذ تعذرت الإقامة والاستقرار . وعثر في مدينة مارتيج Martigues عند مصب الرون ، وفي جزر هير Hyères ، على بعض الأوراق الدالة على إقامة المسلمين فترة من الزمن في هذه البقاع (١) .

